الباب الثالث

مناهج البحث العلمى وأساليبه

الفصل الثالث عشر: تصنيفات مناهج البحث وعلاقتها بالعلوم الطبيعية والاجتماعية والانسانية

الفصل الرابع عشر: البحث الوثائقى

الفصل الخامس عشر: المنهج التجريبى فى البحث

الفصل السادس عشر: منهج المسح

الفصل السابع عشر: منهج دراسة الحالة

الفصل الثالث عشر

تصنيفات مناهج البحث وعلاقتها

بالعلوم الطبيعية والاجتماعية والانسانية

لقد تناولنا فى الباب الأول من هذا الكتاب، الفرق بين أنواع البحوث ومناهجها وأدواتها، ولكن المشتغلين بمناهج البحث، لا يتفقون على تصنيفات محددة لمناهج البحث.. وربما يرجع ذلك إلى تبنى بعضهم لمناهج نموذجية رئيسية، واعتبار المناهج الأخرى جزئية متفرعة من المناهج النموذجية، كما قد يعتبر هـؤلاء ـ أو غيرهم ـ بعض المناهج مجرد أدوات أو أنواع للبحث وليست مناهج. وقس على ذلك ما سبقت مناقشته عن أساليب البحث ومداخله.

اولاً ـ بعض تصنيفات المناهج:

سوف نشير فيما يلى إلى بعض تلك التصانيف، وننتهى إلى التصنيف الذى نراه... ثم نناقش بايجاز خطوات الطريقة العلمية، واستخدام المناهج بالنسبة لاختبار الفرض ثم نشير فى نهاية الفصل إلى المحاذير التى يجب ان يتجنبها الباحث.

(أ) تصنيف هويتنى [1]:

يرى هويتنى أن المنهج يرتبط بالعمليات العقلية نفسها، اللازمة لحل مشكلة من المشاكل... وهذه العمليات تتضمن وصف الظاهرة أو الظواهر المتعلقة بالمشكلة، بما

(١) Whiteny, F.L. The Elements of Research. 3 rd ed . New York, Prentice Hall, 1950.

يشمله هذا الوصف من المقارنة والتحليل والتفسير للبيانات والمعلومات المتوفرة، كما ينبغى التعرف على مراحل الظاهرة التاريخية، والتنبؤ بما يمكن أن تكون عليه الظاهرة فى المستقبل. وقد يستعين الباحث بالتجربة لضبط المتغيرات المتباينة... كما ينبغى أن تكون هناك تعميمات فلسفية ذات طبيعة كلية ودراسات للخلق الابداعى للانسان... وذلك حتى تكون دراسة المشكلة بشكل شامل وكامل، وتكون النتائج أقرب ما تكون إلى الصحة والثقة.

وعلى ذلك فقد وضع هويتنى تصنيفات المناهج كما يلى:

١ ـ المنهج الوصفى:

ويتضمن هذا المنهج أشكالا كثيرة وهى:

- المسح.
- دراسة الحالة.
- تحليل الوظائف والنشاطات. Activities and Job Analysis
- الوصف المستمر على مدى فترة طويلة (وهى دراسة تتبعية لمراحل معينة من النمو أو التطور).
- البحث المكتبى والوثائق (حيث لا يهدف البحث المكتبى إلى مجرد إعداد قوائم ببليوجرافية، وإنما يتضمن تقييم الحقائق المتعلقة بموضوع معين ومقارنتها وتفسيرها والوصول إلى تعميمات بشأنها).

أى أن هذا المنهج يعتمد على تجميع الحقائق والمعلومات، ثم مقارنتها وتحليلها وتفسيرها للوصول إلى تعميمات مقبولة.

٢ ـ المنهج التاريخى:

وهذا المنهج يعتمد على الوثائق ونقدها وتحديدا الحقائق التاريخية، ثم يحاول الباحث بعد مرحلة التحليل هذه، مرحلة أخرى هى التركيب، حيث يتم التأليف بين هذه الحقائق وتفسيرها ـ وذلك كله من أجل فهم الماضى ومحاولة فهم الحاضر على ضوء الأحداث والتطورات الماضية.

٣ ـ المنهج التجريبى:

أى استخدام التجربة فى قياس وضبط المتغيرات المختلفة.

٤ ـ البحث الفلسفى:

وتتضح أهميته عند تحديد الأهداف الأساسية للبحث، وكذلك عند المرحلة الأخيرة للبحث أيضا، وهى مرحلة التعميم.. إذ يعطى الاتجاه الفلسفى للبحث درجة أعمق وأشمل لنتائجه، كما يرى هويتنى أن البحث العلمى والفلسفى متكاملان... إذ يمكن أن تكون الحقائق العلمية أساس النظريات الفلسفية، كما تخضع هذه بدورها للبحث العلمى.

٥ ـ البحث التنبؤى:

Prognostic Researchوهو الذى يهدف إلى التنبؤ بالظواهر المستقبلة سواء استخدام التاريخ فى ذلك أم التجربة أم غيرها.

٦ ـ البحث الاجتماعى:

وهو الذى يهدف إلى التنبؤ بالظواهر المستقبلة سواء استخدم التاريخ فى ذلك ام التجربة أم غيرها.

٧ ـ البحث الإبداعى:

ويهدف هذا الشكل من الدراسات إلى التعرف على العوامل والأسباب المتصلة بعلمية الخلق الابداعى للانسان فى الأدب والفن والعلم.

(ب) تصنيف ماركيز (١) Marquis

وضع ماركيز للمناهج ستة أنواع وهى:

(١) انظر فى ذلك:

ـ عبد الباسط محمد حسن، المرجع السابق، ص ٢١٢ ـ ٢١٦.

- Marquis, D. "Scientific Methodology in Human Relations". In Miller, James. Experiments in Social Process. N.Y., McGraw - Hill Co., 1950.

١ ـ المنهج الانثروبولوجى:

وهو يعتمد على الملاحظة الميدانية... فبعد أن يحدد الباحث المشكلة (دراسة قبيلة أو عدة قبائل أو مجتمع معين الخ) يقوم ببحث وفحص الحقائق والبيانات فى المكتبة أو بأى طريق آخر، ثم يقوم الباحث بالملاحظة المباشرة لعادات الأفراد وتقاليدهم فضلا عن الإفادة من المخبرين الموجودين بالميدان.. ويستطيع بذلك أن يصل إلى الأسباب المؤدية للتغيرات الثقافية. ويرى ماركيز نفسه أن خطوات المنهج العلمى لا تكتمل فى هذا لامنهج إذ لا يضع المنهج الفروض ولا يحاول اختبارها.

٢ ـ المنهج الفلسفى:

حيث يهتم هذا المنهج بصياغة الفروض من أجل الوصول إلى تعميمات نظرية ويؤخذ على هذا المنهج صعوبج قياس مفاهيمه ونتائجه بالملاحظة المباشرة نظراً لأن المنهج لا يعتمد على التجربة.

٣ ـ منهج دراسة الحالة:

وهو يعتمد على الملاحظة التمهيدية والإفادة من النظريات فى مجال التطبيق. وعلى الرغم من أن منهج دراسة الحالة لا يقدم النموذج العلمى المتكامل.. إلا أن ماركيز يراه ذا أهمية كبيرة إذا أمكن الحصول على البيانات ومقارنتها...

٤ ـ المنهج التاريخى:

ويرى ماركيز أن هذا المنهج أقرب إلى عملية تطبيق النظرية العلمية على أحداث الماضى.

٥ ـ المسح:

وينقد ماركيز عملية المسح بأنها ليست مصدراً خصباً الفروض جديدة.. أى أن هناك تفكيراً قليلاً فى النظرية التى تقوم عليها صياغة الفروض.. على الرغم من إمكانية الوصول إلى التعميمات فى دراسات المسح، كما سنرى فيما بعد.

٦ ـ المنهج التجريبى:

وهو مثال طيب لاختبار الفرض والتأكد من صحته أو خطئه... على الرغم من حدود هذا المنهج فى الدراسات الاجتماعية باستثناء علم النفس.

(جـ) تصنيف جود وسكيتس [١] Good and Scates

صنف جود وسكيتس مناهج البحث إلى ستة كما يلى:

* المنهج التاريخى.
* المنهج الوصفى ـ بما يتضمن من دراسات وصفية عامة، ودراست تحليلية ثم التصنيف Classification.
* المسح الوصفى: وهذا يشمل أساليب تجميع البيانات ثم الاستبيان والمقابلة ثم الملاحظة وأساليب التقييم وتحليل المحتوى ودراسة الجماعات الصغيرة.
* المنهج التجريبى.
* منهج دراسة الحالة والدراسات الأكلينيكية.
* دراسات النمو والتطور والوراثة.

(د) بالنسبة للانتاج الفكرى العربى فنرى تصنيفات هذه المناهج كما يلى فى الكتب التالية:

* محمد طلعت عيسى البحث الاجتماعى: يقسمها إلى ستة وهى:

١ ـ منهج دراسة الحالة.

٢ ـ المسح الاجتماعى.

٣ ـ المنهج التاريخى.

---

(١) Good, Carter V. and Scates, Douglas E Method of Research, Educational, Psychological, Sociological, New York, Appleton - Century - Crofts, Inc., 1954, pp. XI - XIX.

٤ ـ المنهج الاحصائى.

٥ ـ المنهج التجريبى.

٦ ـ المنهج المقارن.

* عبد الرحمن بدوى. مناهج البحث العلمى: يقسمها: إلى ثلاثة وهى:

١ ـ المنهج الاستدلالى.

٢ ـ المنهج التجريبى.

٣ ـ المنهج الاسترادادى (التاريخى).

* محمود قاسم. المنطق الحديث ومناهج البحث: يناقش فى كتابه أربعة مناهج وهى:

١ ـ منهج البحث فى الرياضيات (بما يتضمنه من الاستدلال الرياضى وطرق التفكير الرياضى).

٢ ـ منهج البحث فى العلوم الطبيعية.

٣ ـ منهج البحث فى علم الاجتماع.

٤ ـ مناهج البحث فى التاريخ.

وهو يشير إلى أن العلوم الطبيعية تختلف اختلافا كبيرا عن العلوم الرياضية، ذلك لأن الأخيرة تدرس موضوعات عقلية مجردة من كل طابع حسى... وهى الكم المنفصل والكم المتصل والعلاقات التى ربط بين أجزاء كل منهما... أما موضوعات العلوم الطبيعية، فهى تلك الظواهر المادية التى تقع تحت الملاحظة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة والتى قد نستطيع إجراء التجارب عليها.

* عبد الباسط محمد حسن. أصول البحث الاجتماعى: حيث يصنف المناهج إلى أربعة وهى:

١ ـ المسح.

٢ ـ دراسة الحالة.

٣ ـ المنهج التاريخى.

٤ ـ المنهج التجريبى.

ونحن نتفق مع المؤلف الأخير فى تصنيفه ولكن مع تغيير لبعض المصطلحات ومع إضافة المنهج الاحصائى وذلك كما يلى:

١ ـ البحث الوثائقى أو التاريخى Documentray Or Historical Research

٢ ـ البحث التجريبى. Experimental Research

٣ ـ المسح The Survey

٤ ـ دراسة الحالة Case Study

٥ ـ المنهج الاحصائى Statisitcal Method

ونحن لا نغير المصطلحات بهدف الاختلاف... ولكن للتعبير عن المقصود بشكل اكبر من الدقة، فالبحث الوثائقى يصلح لمجالات كثيرة لا للتاريخ وحده ومن هنا كان التعديل... كما أضفنا المنهج الاحصائى... ذلك لأن اختبار الفرض هو العملية التى تركز عليها طرق ومناهج البحث، ونحن نستطيع بالمنهج الاحصائى (التحليل الاحصائى الاستدلالى Inferential Statisticsal Analysis)، اختبار الفروض الاحصائية بهدف «تعميم» النتائج التى يحصل عليها الباحث من تجربة ما أو من مجموعة من التجارب على مجتمع أوسع وأكبر[1].

وإذا كنا سنعالج فى هذا الباب مناهج البحث الأربعة وهى: الوثائقى والتجريبى والمسح ودراسة الحالة، فسنعالج المنهج الاحصائى (بجانبيه الوصفى والاستدلالى) فى الباب الأخير الخاص باختزان وتحليل وتفسير وتقديم نتائج البحث.

(١) عبد اللطيف عبد الفتاح واحمد محمد عمر. المدخل فى الاحصاء ورياضياته، الجزء الأول. الكويت، وكالة المطبوعات، ١٩٧٣، ص ١١٩.

ثانيا ـ اكتشاف المعلومات والفروض المقبولة:

يتضمن البحث فى مختلف المجالات الأكاديمية عادة، فحص واستكشاف المعلومات التى لم يسبق اكتشافها. وتأخذ منه المعلومات شكل الفروض المقبولة والتى يمكن إثباتها... أى أن هذه المعلومات إذا أخذت ككل، فإنها تمثل جميع المبادئ والحقائق التى نسميها المعرفة الانسانية Human Learning. وهذه المعرفة لا نصل إليها عادة إلا عن طريق المحاولة المقصودة والتى تستهلك كثيرا من جهدنا ووقتنا من أجل حل مشاكل محددة.

وقد تعلمنا أنه متى تحددت المشكلة فى ذهن الباحث بدقة كافية فإن الخطوة الأولى نحو حل المشكلة تتمثل فى فحص وتجميع كل الحقائق التى يمكن الحصول عليها فضلا عن الآراء والمبادئ المعروفة التى يحتمل أن يكون لها صلة بالمشكلة.

وهذا الفحص والتجميع للحقائق المتعلقة بالمشكلة، يقود الباحث عادة إلى بعض الفروض الأولية Tentative Hypothesis أو الحلول الممكنة، ولكن هذا الفحص والتجميع لا يقود الباحث بالضرورة إلى النتائج النهائية.

وعلى ذلك فإن الباحث يبدأ فى اختبار الفرض، وذلك حتى يتبين مدى صحته... عن طريق تجميع وتحليل معلومات وبيانات اكثر... أى أن الباحث يقوم بالتأكد من أن الفرض يتلاءم ويتطابق مع جميع الحقائق التى تم اكتشافها ومع مختلف المبادئ المتفق عليها فى هذه الحالة.. بالإضافة إلى قيام الباحث بالتأكد بوجود دليل كاف لتأييد الفرض الذى اقترحه... ولكن أين يمكن أن نبحث عن هذا الدليل؟.. أن الفرض نفسه غالبا ما يشير إلى ذلك.. وإذا لم ينجح الفرض للصمود أمام هذا الاختبار... وإذا ثبت ضعف الدليل اللازم لتأييد الفرض، أو إذا لم يتطابق هذا الدليل مع الحقائق التى تم اكتشافها ـ فإن الباحث يهمل هذا الفرض ويبدأ مرة أخرى بوضع فرض جديد لحل المشكلة بنفس الطريقة السابقة.

ثالثاً ـ اختبار الفرض واستخدام مناهج البحث:

وما يعنينا فى هذه الدراسة هو عملية اختبار الفرض، وهذه العملية هى التى تركز عليها طرق ومناهج البحث.

فالطرق والمناهج المستخدمة فى حلّ مشاكل البحث ذات أهمية بالغة... ذلك لأن استخدام المناهج الخاطئة لا توصلنا إلى حل صحيح إلا بالمصادفة... وعلى ذلك فإن الباحث يجب أن يتعلم على قدر المستطاع المناهج التى ثبت نجاحها فى مجاله العلمى، ويجب أن يكتسب مهارة استخدامها بالممارسة العملية بالدرجة الأولى...

ويمكن أن نصنف طرق البحث ومناهجه بصفة عامة بما يؤدى إلى تعلم المهارات بطريقة أكثر يسراً وسرعة.. كما يجب أن نضيف بأن اختيار المناهج الصحيحة يعتمد على طبيعة مشكلة البحث نفسها.. ذلك لأن المشاكل المختلفة لا يتم حلها بنفس الطريقة. كما أن البيانات المطلوبة للمعاونة فى الحل تختلف بالنسبة لهذه المشاكل أيضا...

ونتيجة لذلك فينبغى قبل اختيار المنهج البحثى الصحيح، أن تدرس كل مشكلة على حدة على ضوء خواصها المميزة والبيانات والمعلومات المتوفرة.

وطرق البحث ومناهجه ـ كمناهج لازمة لاختبار الفرض ـ تتضمن الخطوات الرئيسية التالية:

١ ـ تحديد وتعيين مكان البيانات والمعلومات الضرورية وتجميعها، وهذه تشكل الأساس لأى حل.

٢ ـ تحليل وتصنيف هذه البيانات والمعلومات وذلك للوصول إلى فرض مبدئى Preliminary Hypothesis يمكن اختباره والتحقق من صحته أو خطئه..

وهناك مناهج كثيرة للكشف عن الدليل وتحليله وتصنيفه لأغراض البحث، أوردنا بعضها عند الحديث عن تصانيف المناهج وانتهينا إلى المناهج الخمسة الوثائقية والتجريبية والمسح ودراسة الحالة والمنهج الاحصائي.

وينبغي أن نشير إلى أنه من المرغوب فيه (في أي دراسة بحثية) استخدام منهجين أو أكثر من هذه الأشكال العامة لحل مشكلة البحث.. فليس هناك من سبب ـ على سبيل المثال ـ يحول بين الباحث ومحاولة الوصول إلى حل لمشكلته بدراسة تاريخها عن طريق فحص الوثائق (وهذا ما يعرف بالبحث الوثائقي) ثم تحديد وضع المشكلة الحاضر بنوع من المسح (وهذا ما يعرف بالبحث الوصفي) أي أنه كان العرف المتبع هو تطبيق طريقة واحدة للبحث فقط في أي دراسة مطلوبة، إلا أن ذلك لايحول بين الباحث وبين استخدام طرق بحث أخرى إضافية مكملة...

وعلى كل حال فإن استخدام طريقة بحث معينة دون الطرق الأخرى، يرتبط إلى حد كبير بنوع المشكلة المطروحة للبحث وطبيعة المعلومات والبيانات المتوفرة.

ومن نافلة القول أن نشير إلى أنه ليس هناك باحث يختار مشكلة للدراسة لأنها ببساطة تتصل بطريقة معينة من طرق البحث.

ونحن نؤكد في هذا التقديم على أن مناهج البحث المختلفة ليست شيئا مملوءاً بالألغاز والأسرار، كما أن هذه المناهج ليست معقدة يصعب استيعابها.. وربما تبدو صعوبة مناهج البحث أمام الشخص العادي نتيجة استخدام بعض المصطلحات الغريبة... أو المعقدة.. والتي ربما لم يتعود سماعها في مناقشاته أو دراساته الأخرى.

وليس معنى هذا الذي نقوله إن حل مشكلات البحث العلمي أمر يسير، ولكننا نتحدث هنا عن المبادئ التي تنسحب على طرق البحث ومناهجه.. كما أننا هنا لا نزعم بأنه من اليسير أن نحصل على جميع البيانات والمعلومات الضرورية أو أن نفسر هذه المعلومات والبيانات تفسيرا صحيحا.. ولكننا هنا نؤكد على مبدأ معين.. وهو أن الفروض لا يتم اختبارها. والمشاكل العلمية لا يتم حلها، بمجرد ومضات

البداهة Intuition (على أهميتها وقيمتها) ولا بمجرد الخبرة المحدودة، كما لا يتم حل هذه المشاكل بمجرد معاملتها بالمنطق والقياس وحدهما. فمشاكل البحث العلمى تتطلب اتباع مناهج للدراسة يتم التخطيط لها بعناية، وذلك للقضاء على أخطاء التقدير أو التحيز أو غير ذلك من الأخطاء، وحتى يبنى البحث على أساس متين من الدليل المقبول الذى يخدم النتائج التى ينتظر الوصول إليها.

رابعاً ـ مناهج البحث وطبيعة العلوم الاجتماعية والسلوكية:

لقد عارض بعض العلماء والفلاسفة استخدام المنهج العلمى فى العلوم الاجتماعية إذ يرونه ملائماً للعلوم الطبيعية اكثر من غيرها، كما أن هناك فروقاً جوهرية فى نظر هؤلاء المعارضين بين هذين النوعين من المعرفة، ويمكن أن نجمل ذلك فى النقاط التالية:

١ ـ عدم دقة المفاهيم والمصطلحات فى العلوم الاجتماعية:

يرى هؤلاء المعارضون لاستخدام المنهج العلمى، أن المصطلحات المستخدمة فى العلوم الاجتماعية لينة مطاطة مرنة (Soft, Flexible)، أما العلوم والتكنولوجيا فيطلق على مصطلحاتها أنها صلبة (Hard) للدلالة على الدقة فى المقارنة بين المفاهيم (Concepts) وكيفية تحديد الأفكار والتعبير عنها بكلمات، كما أن استخدام مصطلحات معينة فى علم من العلوم الاجتماعية لا يعنى بالضرورة أنها تدل على نفس المفاهيم فى علم آخر.. وهكذا ومعنى ذلك أنه كلما استطعنا تحديد المفاهيم والتعاريف والاصطلاحات أمكننا اتباع الأسلوب العلمى بفعالية.

٢ ـ الحقائق الاجتماعية إذا وجدت تخضع للتفسير الذاتى:

على الرغم من أن الدراسات الاجتماعية تحتوى على كثير من البيانات والمعلومات التى تعتبر حقائق واضحة Plain Facts.. إلا أن تفسير هذه الحقائق يخضع لآراء الباحثين وحكمهم وربما يطوع التفسير لأغراض شخصية أو سياسية أو غيرها..

وعلى كل حال فالمنهج العلمي يؤكد على ضرورة الموضوعية Objectivity في تناول هذه المعلومات والبيانات والبعد بها عن التحيزات الشخصية على قدر الامكان.

٣ ـ صعوبة التحكم فى المواقف الاجتماعية والسلوكية:

هناك عوامل عديدة تدخل فى هذه المواقف الاجتماعية والسلوكية، وهذه العوامل تشمل الجوانب الجغرافية والثقافية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والبيولوجية وغيرها.... وهذه تتداخل مع بعضها تداخلاً عضوياً وديناميكيا، بحيث يصبح من العسير، فصل أجزاء الموقف عن بعضها والتحكم فيها أو عزلها. ومواقف هذه طبيعتها، مواقف معقدة من غير شك، فى نظر هؤلاء المعارضين لاستخدام المنهج العلمى، وعلى ذلك فإن اكتشاف القوانين والتعميمات التى تنسحب عليها يعتبر أمرا عسيرا كذلك.

وعلى الرغم من أن الانسان قد قام بدراسة العلوم الطبيعية والاجتماعية منذ عهد بعيد، إلا أن العلوم الطبيعية قد حظيت بالإهتمام الأكبر، ومن هنا أصبحت المعلومات العلمية والتكنولوجية تتضاعف كل عشرة أو خمسة عشر عاماً بينما تتضاعف العلوم الاجتماعية كل خمسين عاما تقريبا.

ولكن هناك فى الحقبتين الأخيرتين اهتمام متزايد بالبحوث فى المجالات الاجتماعية والانسانية (كما هو الحال بالنسبة للعلوم السلوكية، وهى التى تهتم بدراسة السلوك الانسانى بالطريقة العلمية).

وعلى ذلك فالقول بصعوبة وتعقد المواقف الاجتماعية والسلوكية هو قول نسبى، لأنه يعكس درجة تطور الدراسات الاجتماعية والانسانية ودرجة تطبيقها للمنهج العلمى. والمستقبل سيكشف لنا من غير شك قوانين كثيرة، تعتمد على الأسلوب العلمى السليم الذى يجمع بين الاستقراء والاستدلال كما فعل داروين من قبل...

٤ ـ ارتباط التجارب والظواهر الاجتماعية بزمان ومكان معينين:

يعتبر بعض العلماء الاجتماعيين أن الظواهر الاجتماعية فردية وفريدة فى نوعها

وهى ترتبط بزمان ومكان معين.. وعلى الرغم من تسليمنا بأن موضوع كل ظاهرة فريد فى نوعه (فثورة سنة ١٩٥٢ فى مصر مثلا لم تحدث إلا مرة واحدة على مدى التاريخ، وفى مكان واحد وهو مصر).. إلا أننا نرى كما يرى العلماء الاجتماعيون (١) أن العوامل والظروف التى تحكمت فى قيام الثورة والتغيرات التى أدت إلى الثورة تكررت فى كثير من المجتمعات، ومن الممكن دراسة هذه الثورات جميعا والوصول إلى القوانين العامة التى تؤثر فى قيامها أو تطويرها.

٥ ـ الذاتية والموضوعية فى الدراسات الاجتماعية والسلوكية:

البحث فى العلوم الاجتماعية يدور حول الانسان والمجتمع، أى أن الباحث نفسه يكون جزءا من دائرة البحث، ومعنى ذلك أن الباحث سوف لا يكون بالضرورة موضوعيا Objective يقف خارج التجربة التى يقوم بها.. أى أن ردود الفعل الخاصة بأى ظاهرة من الظواهر لا بد أن تتأثر بأفكاره وتجاربه الشخصية، وعلى ذلك فيمكن لاثنين من الباحثين الاجتماعيين أن يصلا إلى نتائج مختلفة مستخدمين نفس البيانات والمعلومات..

هذا والدراسات الاجتماعية تعطى قيمة للأشياء (Value Impregnated) وليس هناك تقييم للقيمة لأن الشخص المقيّم هو نفسه جزء من عملية التقييم. وباختصار فإن معالجة الموضوعات الاجتماعية فى نظر المعارضين لاستخدام المنهج العلمى، تتصل بالتفسير الذاتى الذى يمكن أن يصدر عن التحيز لجماعة أو نظام أو قيمة أو فكرة معينة، أو بناء على مصلحة أو قوة قاهرة أوغير ذلك.. وتتركز العوامل المؤثرة على الباحثين فى المجالات السلوكية والاجتماعية فيما يلى: الدوافع الخاصة، العادات والتقاليد، الموقف الاجتماعى، القيم التى يعتنقها الأفراد وينشأون عليها.

وتقول إحدى الباحثات بشأن «الموضوعية» فى الدراسات الاجتماعية والسلوكية «أن العلماء الاجتماعيين يهدفون إلى تحقيق غاية غريبة، فهم يريدون أن يكونوا موضوعيين فى مجال يمثل الجانب الذاتى من الحياة».

(١) عبد الحميد لطفى وآخرون. أصول علم الاجتماع. القاهرة، مطبعة لجنة البيان العربى، ١٩٦٢.

وإذا كانت الموضوعية المطاقة عسيرة التحقق فى الدراسات الاجتماعية فإنه مع توفر الحرية للباحثين ذوى التخصصات المختلفة والذين يعالجون جوانب متعددة من مشكلة واحدة وهو ما يسمى بأسلوب فريق البحث (Team Research) ومع توفر المناخ العلمى والمقاييس العلمية الدقيقة، فإن الحصول على قوانين اجتماعية وسلوكية ذات أصالة وشمول ليس أمراً مستحيلا.

٦ ـ الدراسات الاجتماعية والسلوكية وطرق القياس الكمية والكيفية:

لقد لاحظ الباحثون أن العلوم التى وصلت إلى المرحلة الكمية قد مرت بالدور الكيفى، فقد كان يقال مثلا أن الأشياء ساخنة أو باردة ثقيلة أو خفيفة إلى أن ظهرت مقاييس دقيقة أمكن بمقتضاها تحديد هذه الصفات تحديداً كمياً والتعبير عنها بلغة الأرقام..

وسيصبح فى الامكان إذن مع تقدم أساليب القياس واتباع الطريقة العلمية فى البحث واستخدام الأساليب الاحصائية والرياضية المتطورة، الوصول إلى المرحلة الكمية فى الدراسات الاجتماعية والسلوكية.. كما أننا قد أشرنا إلى أن الطريقة العلمية السليمة، هى تلك التى تستخدم كلاً من الاستقراء والاستدلال، أى أن تطور وسائل القياس الكمى الدقيقة مع النظرة الموضوعية السليمة الشاملة، ستؤدى إلى نتائج دقيقة فى المجال الاجتماعى والسلوكى..

إن معظم الاعتراضات السابقة، لا تشير فى نظرنا إلى طبيعة العلوم الاجتماعية المختلفة بقدر ما تشير إلى نقص البحث العلمى فى هذه المجالات.. وسيستطيع الإنسان، مع تقدم البحث، أن يصل إلى القوانين العامة التى تحكم الظواهر الاجتماعية والسلوكية، والتى تساعد بدورها على التنبؤ بما يحدث للظواهر المختلفة تحت ظروف معينة..

ولما كانت العلوم السلوكية تهتم بدراسة السلوك الانسانى بالوسائل العلمية وتطبق فى ذلك المنهج العلمى.. فيمكن أن نشير إليها باختصار كما يلى:

ـ العلوم السلوكية ونطاقها ومفهومها:

تعتبر العلوم السلوكية Behavioral Sciences جزءا من العلوم الاجتماعية، كما أن هذه العلوم السلوكية أصغر عمراً من الاجتماعية.. وتهتم العلوم السلوكية بدراسة السلوك الانسانى بالوسائل العلمية. وإذا كان مصطلح العلوم الاجتماعية يشمل علم الانسان Anthropology والاقتصاد وعلم السياسة والاجتماع ومعظم علم النفس ـ فإن مصطلح العلوم السلوكية كما قصد به أصلاً يشمل علم الاجتماع وعلم الانسان (بدون علم الآثار، اللغويات الفنية ومعظم الانثروبولوجيا الطبيعية) وعلم النفس (بدون علم النفس الفسيولوجى) بالإضافة إلى الجوانب السلوكية لعلم الحياة Biology، الاقتصاد، الجغرافيا، القانون، الطب النفسى Psychiatry وعلم السياسة.

ولكن ما هو أصل اصطلاح «العلوم السلوكية» هذا، لقد كان الحدث الأساسى فى إيجاده هو برنامج مؤسسة فورد الخاص بالسلوك الفردى والعلاقات الانسانية، ولكنه أصبح يعرف فيما بعد ببرنامج العلوم السلوكية الذى تحددت جوانب البحث فيه كما يلى:

ـ إرساء قواعد السلام.

ـ تقوية الديمقراطية.

ـ تقوية الاقتصاد.

ـ التعلم فى المجتمع الديمقراطى.

ـ السلوك الفردى والعلاقات الانسانية.

وعلى كل حال فما يميز مفهوم العلوم السلوكية هو ما يلى:

١ ـ أنه يعتمد أساساً على البحث.

٢ ـ أنه يعتمد على المنهج العلمي في الحصول على المعلومات السلوكية تحت ظروف توفر الموضوعية وإمكانية التحقق منها وعموميتها.. مع اتفاقها مع المقننات العالية للبحث العلمي.

٣ ـ أنه يعتمد على الحصول على المعلومات الأساسية عن السلوك الانساني وبالتالي فهو مشروع طويل المدى.

٤ ـ أنه يتصل بالمشاكل والاحتياجات الاجتماعية.

٥ ـ أنه يعبر عن طبيعة اعتماد العلوم بعضها على بعض Interdisciplinary approach أي أن المعلومات الخاصة بالسلوك الانساني ينبغي ان يتم الحصول عليها من مختلف المصادر حيث يسهم علماء الاجتماع والطب والإنسانيات بمفردهم أو كجماعة في ذلك. والهدف من ذلك هو الإفادة من جميع المعارف والمهارات والمفاهيم.. الخ..

٦ ـ أنه يشير إلى مادة موضوعية Subject matter عريضة ومعقدة.. وذلك بغرض «الفهم العلمي» لأسباب سلوك الناس.. كما أن اصطلاح السلوك لا يدل فقط على الأفعال الظاهرة ولكن على السلوك الذاتي كالاتجاهات والمعتقدات والتوقعات والدوافع والطموحات.. كما يهتم البرنامج بدراسة السلوك الإنساني للأفراد وكأعضاء في الجماعات الأولية وفي الهيئات الرسمية وفي الطبقات الاجتماعية وفي المؤسسات الاجتماعية.. والبرنامج يهتم كذلك بالميراث الثقافي والتركيب الاجتماعي الذي يبتدعه الانسان لتنظيم مجتمعاته ومتابعة أهدافه..

٧ ـ أن يقدم البرنامج البحثي والوسائل العلمية التي يمكن استخدامها وتيسير الشئون الانسانية[1].

(١) Berelson, Bernard, "Behavioral Sciences" in International Encyclopedia of Social Sciences, Vol. 2, pp. 41 - 45, 1968.

وما يهمنا فى هذا العرض للعلوم السلوكية أن العلماء المشتركين فى الدراسات المذكورة يستخدمون مختلف أدوات ووسائل تجميع البيانات كما أنهم يستخدمون مختلف مناهج البحث اللازمة لحل مشكلات السلوك الانسانى [1] وذلك باتباع المنهج العلمى:

خامساً ـ بعض المحاذير في اختيار منهج البحث:

هناك ملاحظات لا بد أن نشير إليها فى هذا التقديم. وأهم هذه الملاحظات أنه ليس هناك ميزة خاصة يدعيها الباحث بتسميته أو تحديده لمنهج بحث معين يقوم باستخدامه. ذلك لأن الشئ الذى ينبغى أن يحظى باهتمامنا هو مقدرتنا على الإفادة من منهج معين فى دراستنا بحيث نكون قادرين على حل مشكلتنا بدقة... وليس هناك طريقة (مهما كانت تتسم بالحذق والذكاء Ingenious) يمكن أن تكون ناجحة إلا إذا أدت إلى نتائج سليمة وحقيقية.. أى أن المنهج ـ أو الطريقة لا ينبغى اعتباره كهدف فى حد ذاته... ولكنه مجرد وسيلة لتحقيق الهدف أو الغرض.

هذا ويجب على الباحث أن يفهم بكل وضوح واكتمال طريقة البحث التى اختارها لحل مشكلته البحثية. كما ينبغى على البحث أن يخطط مقدما ـ على قدر ما يستطيع ـ الخطوات التى سيقوم بها للتقدم نحو حل مشكلته. وعلى الرغم من أن الباحث قد يجرى بعض التغييرات أو الإضافات فى طريقة البحث التى يتبعها نتيجة لاكتشافه لمزيد من الأدلة مع تقدمه فى الدراسة، فإن خطته الرئيسية يجب أن ترسم بعناية من البداية.

(١) انظر المراجع التالية فى مناهج وأدوات البحث المستخدمة:

- Festinger, Leon and Katz, Daniel. Research Methods in the Behavioral Sciences. N.Y., Dryden, 1953.
- Berelson, Bernard and Steiner, Gray A Human Behaviour; An Inventory of Scientific Findings. N.Y., Harcourt, 1964.
- Miller, James G. Toward a General Theory for the Behavioral Sciences. Americcan Psychologist 10: 513 - 531, 1955.
- Abrams, Arnold et al. Unfinisshed Tasks in the Behavioral Sciences. Baltimore, Williams and Wilkinsons, 1964.

وعلاوة على ذلك فإن منهج البحث الذى يختاره الباحث لاختيار فرضه ـ وبالتالى للوصول إلى نتيجة نهائية ـ يجب أن يكون كامل الوضوح فى ذهنه. وأن يكون هذا المنهج محددا فى تفاصيله بحيث يكون الباحث مستعدا لشرح هذه الخطة لأى شخص آخر فى سهولة ويسر.. وإذا لم يستطع الباحث أن يشرح خطته فى سهولة ووضوح فمعنى ذلك أن الخطة غامضة وعامة فى ذهنه وبالتالى فليس هناك احتمال فى وصوله إلى نتائج مرضية..

وأخيراً فهناك ثلاثة مخاطر رئيسية على الأقل، يجب ملاحظتها فى تجميع وتحليل البيانات والمعلومات.. وأول هذه المخاطر يتصل بكفاية البيانات.. وعلى الباحث أن يسأل نفسه ـ دائما ـ وقبل الانتهاء من دراسته ـ عما إذا كان الدليل الذى قدمه أو اكتشفه يعتبر كافيا لتدعيم وتأييد النتائج التى يصل إليها، وما هو مقدار الثقة فى هذا الدليل. وإذا كان الدليل ضعيفا أو غير كاف، فإن نتائج الدراسة لا يمكن اعتبارها مقنعة أو نهائية. أما الخطر الثانى فيتمثل فى تناول البيانـــات ومعالجتها... إذ يجب أن ينظر إلى الدليل بحرص نظرة ثاقبـة للتـأكد من دقته وأصالتـه وصدقه Accuracy and authenticity . والأخطاء التى قد ترتكب فى التجربة، مثل وجود بعض الشوائب (الكيميائية أو عدم أخذ جميع المتغيرات فى الاعتبار) أو وجود بعض التضليل فى الاستبيان (كالأسئلة الايحائية) أو عدم قراءة الوثيقة والاطلاع عليها إطلاعا سليما.. كل هذه الأخطاء يمكن أن تقضى على العمل الدقيق فى الدراسة البحثية.

ومعنى ذلك أيضا أنه إلى جانب التأكد من اكتشاف الدليل الكافى للغرض، فإن على البحث أن يتأكد من سلامة تناول ومعالجة هذا الدليل.

وأخيراً فيبقى خطر استخراج نتائج خاطئة من البيانات.. أى فهم أشياء مختلفة عما قصدت إليه هذه البيانات والمعلومات فى واقع الأمر.. والفهم الصحيح لمحتويات الوثائق عامل أساسى فى موضوعية البحث (Objectivity)... ويجب أن يقاوم الباحث رغبته فى أن يحمل الدليل ما كان يتمنى أن يكون فيه.

وخلاصة هذا كله ان هناك خمسة مناهج رئيسية للبحث هى: البحث الوثائقى (أو التاريخى) والتجربة والمسح ودراسة الحالة ويمكن أن نضيف إليها أيضاً المنهج الاحصائى. وهذه المناهج هى مجرد وسائل تعين الباحث على اختبار الفرض الذى يضعه عن طريق تجميع وتحليل البيانات.. ويجب على الباحث أن يعتبر طرق البحث هذه مجرد وسائل ومناهج لا أهدافاً وغايات.. كما أن اختيار المنهج البحثى السليم (أو عدة مناهج بحثية) يعتمد على طبيعة المشكلة وعلى نوع البيانات التى تتضمنها هذه المشكلة.. وإذا ما أحسن الباحث اختيار المنهج فى علاقته بالمشكلة التى يبحث فيها، ثم فهم بوضوح كلاً من المنهج وأسباب استخدامها فيجب أن يتاح له بعد ذلك تجميع أكبر عدد ممكن من البيانات والمعلومات الكافية وتناولها وتحليلها وتفسيرها بشكل سليم، وذلك لتأييد وتدعيم نتائج صحيحة. وعلى ذلك فنحن نعنى بمنهج البحث أو طريقة البحث، خطة معقولة لمعالجة المشكلة وحلها... عن طريق استخدام المبادئ العلمية المبنية على الموضوعية والادراك السليم لا البداهة والتخمين أو التجربة العابرة أو مجرد المنطق. والمنهج العلمى لا يصلح للعلوم الطبيعية وحدها بل يصلح كذلك للعلوم الاجتماعية والانسانية خصوصا إذا استطعنا أن نستبعد العوامل الذاتية، وأن نركز على الظواهر والعوامل الموضوعية فى الدراسة.

الفصل الرابع عشر

البحث الوثائقى

نطاق واهمية البحث الوثائقي:

يعود مصطلح البحث الوثائقى إلى النشاطات العلمية، التى يقوم بها الطالب الباحث لتعلم الحقائق والمبادئ الجديدة، عن طرق دراسة الوثائق والمسجلات Records. وعلى الرغم من أن هذا النوع من البحوث، يمكن أن يستخدم فى جميع المجالات الأكاديمية، إلا أنه ذو أهمية خاصة فى دراسة التاريخ والآداب واللغات والإنسانيات على وجه العموم.. ويستخدم علماء التاريخ هذه الطريقة بشكل ثابت، مما أدى إلى تسميتها فى كثير من الأحيان بالطريقة التاريخية Historical Method.

وينبغى أن نشير فى هذا المجال إلى أن التاريخ ليس مجرد قائمة بالأحداث فى ترتيبها الزمنى، أنه السجل الدال على إنجازات الإنسان.. إنه رواية حقيقية متماسكة للعلاقات بين الأشخاص والأحداث والزمان والمكان.

والناس يستخدمون التاريخ لفهم الماضى.. ومحاولة فهم الحاضر على ضوء الأحداث والتطورات الماضية.. ويمكن أن يوجه التحليل التاريخى نحو شخص معين، نحو فكرة، نحو حركة، أو نحو مؤسسة أو هيئة معينة، ومع ذلك فلا يمكن أن يعامل كل واحد من هذه الجوانب فى عزلة عن الجانب الآخر.. فلا يمكن مثلا أن تخضع شخصا ما للبحث التاريخى، دون اعتبار لتفاعله مع الأفكار والحركات

والمؤسسات القائمة في عصره.. وتحدد البؤرة (وهي الشخص الذى تخضعه للبحث في هذا الحالة) نقطة التركيز فقط، التى يوجه إليها باحث التاريخ انتباهه [1].

وعلى الرغم من أن البحث الوثائقى ذو أهمية بالغة فى فحص أحداث الماضى (فى الواقع هذا النوع من البحث هو الطريقة العملية الوحيدة) إلا أن البحث الوثائقى يمكن استخدامه كذلك بشكل مفيد فى دراسة الأمور الجارية.. وعلى سبيل المثال، فقد استطاع اخصائيو الشفرة والكتابة السرية الأمريكيون (American Cryptographers) أن يستعينوا بطرق البحث الوثائقى لحل شفرة العدو وبالتالى ترجمة رسالاته العسكرية خلال الحرب العالمية الثانية... أى أننا لا ينبغى. أن نعتبر البحث الوثائقى محدودا بالدراسات التاريخية..

وربما تعتبر هذه الطريقة التى تتصل بتجميع وتحليل البيانات والمعلومات أقدم شكل من أشكال البحث الحقيقى... ولقد استخدمها المؤرخون اليونان القدماء.. واستخدمها أرسطو فى دراسته عن الدراما والشعر اليونانى.. ولقد طرأ على هذه الطريقة الوثائقية الكثير من التنقيح فى العصر الحديث.. وبالتالى أصبحت أكثر دقة مما كانت عليه أيام الفلاسفة وعلماء التاريخ اليونان..

ويتضمن البحث الوثائقى بصفة أساسية وضع الأدلة المأخوذة من الوثائق والمسجلات ـ مع بعضها بطريقة منطقية.. والاعتماد على هذه الأدلة فى تكوين النتائج التى تؤسس حقائق جديدة أو تقدم تعميمات سليمة عن الأحداث الماضية أو الحاضرة أو عن الدوافع والصفات والأفكار الانسانية [2].

وعلى الرغم من أن هذه العلمية مطبقة بطريقة أشمل فيما يتعلق بالوثائق الانسانية، إلا أنها يمكن أن تكون مفيدة أيضا فى دراسة المسجلات Records ـ غير الانسانية ـ ذات الأشكال المتعددة.. ففى الجيولوجيا مثلا يمكن دراسة تطور الأرض

(١) Best, John. W. Research in Education. 2nd ed. New Jeresy, Prentice Hall, Inc., 1970, p. 94.

(٢) Hillway, Tyrus. Introduction to Research. 2nd ed. Boston, Honghton - Mifflin Co., 1964, p. 142.

عن طريق تجميع ودراسة الصخور والحفريات من الطبقات المختلفة. فالوثائق التى يتم فحصها فى هذه الحالة ليست مسجلات مكتوبة أو حتى آثاراً ومخلفات للنشاط الانسانى.. فهذه المسجلات هى مجرد حقائق طبيعية تمثل سجلا للأحداث، يمكن ملاحظته، كما تتصف هذه الحقائق بالاستمرار والدوام إلى حد كبير، فالحفريات نفسها تدلنا على حياة ما قبل التاريخ ، بطريقة أفضل وأكثر أصالة مما يمكن أن نتعلمه من المسجلات المكتوبة (Wirtten records) مهما كانت كاملة ودقيقة.

وقبل أن نتناول كيفية دراسة الوثائق فيمكن أن نتساءل أولاً لماذا ندرس الوثائق أصلا؟.. أن الإجابة عن ذلك تتصل برغبة الانسان فى التعلم. وسواء كانت هناك فائدة أو قيمة عملية من دراسة التاريخ الانسانى المسجل (أو عصور ما قبل التاريخ) أو لم تكن هناك قيمة فعلية... فان معظمنا يهتم بالتعلم والتأمل فى الأحداث الماضية.

إن حب الاستطلاع إذن، سيزودنا بتبرير كاف على أية حال بالنسبة للدراسة الوثائقية، ومع ذلك فيبدو أن هذه الوسيلة تمدنا ببعض التعميمات Generalizations ـ بناء على الأحداث الماضية ـ والتى يمكن ان ترشدنا فى سلوكنا الحاضر.. هذا فضلاً عن أن الأفكار والاتجاهات الجارية تبدو مفهومة بطرقة أفضل عندما نتعرف على أصولها والخطوات التى تمت خلال عملية النمو..

ومعنى ذلك أن الوثائق لا تعتبر ذات قيمة أثرية فحسب، ولكنها تعطينا قوة متزايدة لفهم الطبيعة وفهم أنفسنا.. ونحن ندرس سجلات الماضى والحاضر لفهمها واكتشاف الحقائق منها وكذلك لتعلم أشياء وحقائق عن مؤلفيها وواضعيها (فى حالة المسجلات الانسانية). وأخيراً فنحن ندرس الوثائق للوصول إلى التعميمات (الفروض أو النتائج) عنها.

التاريخ والعلم:

هناك اختلاف فى الرأى حول نشاطات الباحث التاريخى وهل تعتبر جهوده علمية أم لا؟ وهل هناك شئ اسمه البحث التاريخى؟ ويمكن أن نعرض وجهة نظر أولئك الذين يتخذون الموقف السلبى نحو البحث التاريخى فى البنود التالية:

١ ـ على الرغم من أن غرض العلم هو التنبؤ.. فإن البحث التاريخى لا يستطيع دائما أن يعمم Generalize على أساس الأحداث السابقة. ذلك لأن الأحداث السابقة كانت غالبا غير مخططة أو أنها لم تتطور كما هو مخطط لها، لأن هناك عوامل أخرى كثيرة لا يمكن التحكم فيها، وكذلك لأن تأثير واحد أو عدد قليل من الأشخاص كان حاسما.. وعلى ذلك فإن نفس النموذج بما يشمل من عوامل سوف لا يتكرر أبدا.

٢ ـ يعتمد الباحث التاريخى بالضرورة على الملاحظات التى يبديها الآخرون وغالباً ما يشك فى نزاهة وكفاءة هؤلاء الشهود نظرا لتحيزاتهم الشخصية.. ومعنى ذلك باختصار أن الموضوعية فى البحث التاريخى أمر مشكوك فيه..

٣ ـ أن الباحث التاريخى يشبه كثيرا ذلك الشخص الذى يحاول استكمال «ألغاز الصور المقطوعة» Jig - saw Puzzle حيث لا توجد أجزاء كثيرة من تلك الصور.. وعلى أساس الدليل غير الكامل.. فيجب على الباحث إذن أن يملاء الفراغات باستنتاج ما حدث وسبب حدوثه..

٤ ـ أن التاريخ لا يعمل فى نظام مقفل.. مثل ما يحدث فى معمل العلوم الطبيعية، فالباحث التاريخى لا يستطيع أن يتحكم فى ظروف الملاحظة ولا يستطيع تناول المتغيرات ذات الأهمية والدلالة..

أما أولئك الذين يعتبرون أن البحث التاريخى له بعض صفات البحث العلمى فيعتمدون على المبررات التالية:

١ ـ يحدد عالم التاريخ مشكلة معينة للبحث، ويضع الفروض أو الأسئلة التى تتطلب إجابة عليها، وهو يجمع ويحلل البيانات والمعلومات الأولية وهو يختبر الفرض حتى يثبت اتفاقه أو عدم اتفاقه مع الدليل.. وهو يضع أخيرا التعميمات والنتائج..

٢ ـ على الرغم من أن عالم التاريخ قد لا يكون قد شهد حادثا معينا، كما أنه لم يجمع بياناته مباشرة فى كثير من الاحيان ومع ذلك فلديه شهادة العديد من الشهود الذين حضروا الحدث ورأوه من مختلف جوانبه... ومن الممكن أن تزودنا الأحداث التالية بمعلومات إضافية غير متوفرة للمشاهدين المعاصرين.. فعالم التاريخ إذن يخضع دليله بشدة للتحليل النقدى وذلك للتعرف على أصالته وصدقه ودقته..

٣ ـ عندما يقرأ عالم التاريخ نتائجه فإنه يستخدم قواعد الاحتمالات المتشابهة لتلك التى يستخدمها علما العلوم الطبيعية..

٤ ـ على الرغم من أن عالم التاريخ لا يستطيع التحكم فى المتغيرات بصفة مباشرة، فإن هذا العيب ليس قاصراً على المنهج التاريخى، بل هو يميز الحبوث السلوكية كلها خصوصا تلك التى لا تستخدم فيها البحوث المعملية... وذلك مثل الاجتماع والسياسة وعلم النفس الاجتماعى والاقتصاد وغيرها.

وعلى كل حال... فإن أكثر العوامل التى تحد من فعالية المنهج الوثائقى، هو أنه «غير مباشر» Indirect أى أنه يجب أن يعتمد على المصادر الأخرى. والطريقة أو المنهج الوثائقى هو منهج نقدى.. وبالتالى. فإن المصادر معرضة للنقد الخارجى والداخلى... والنقد الخارجى يتصل بأصالة الوثيقة أى بشكلها وبمظهرها.. ولكن النقد الداخلى يتعلق (*) بمعنى الوثيقة ودرجة اتصالها بالحقيقة..

إن تفسير المسجلات هو النقطة المركزية فى البحث الوثائقى.. ولما كانت هذه المسجلات والوثائق هائلة الحجم أحيانا.. فينبغى على الباحث أن يتعلم طريقة المعاينة وحسن الاختيار منها، حتى يستوفى البحث أركان الدراسة من جوانبها المختلفة..

(*) يرى البعض ان النقد الداخلى ينقسم إلى نوعين احدهما ايجابى ويقصد به فهم المعنى الحقيقى الذى ترمى إليه الوثيقة.. أما السلبى فهو يفيد فى معرفة الظروف التى وجد فيها كاتب الوثيقة حين سجل ملاحظاته، وهل قصد إلى تشويه الحقائق ام لا..

انواع الدليل التاريخي:

هنا مصادر أو أدلة أولية وأخرى ثانوية، والمصادر الأولية هى تلك المعاصرة للحدث أو الشخص أى أنها أقرب ما يمكن للحدث.. أما المصادر أو الدليل الثانوى فهو غير المعاصر للأحداث أى أنه ليس هناك حلقة مباشرة بينه وبين الحدث.. وعلى الرغم من أن الدليل الأولى هو أساس البحث الوثائقى والتاريخى.. إلا أن الدليل الثانوى قد يكون له نفس أهمية الدليل الأولى. هذا وتتجمع البيانات والمعلومات فى البحث الوثائقى من مصادر عديدة منها:

١ ـ المدونات والوثائق الرسمية:

وهذه يمكن أن تشمل المسجلات الشرعية (التى تصدرها المحاكم مثلا) القوانين وغيرها من الأحكام التشريعية ومضابط الاجتماعات والتقارير الإدارية (كالتقرير الرسمى لمؤسسة حكومية أو مدير جامعة لمجلس الجامعة... الخ) تقارير اللجان فى المنظمات والنوادى المختلفة، التقارير السنوية، الشهادات الشرعية الخاصة بالأفراد (العقود والاتفاقات) أو التى تمنحهم قوة معينة على أفراد أو جماعات آخرين (كالاجازات والمواثيق.. الخ) وغير ذلك من الوثائق المشابهة التى تدل على القرارات والأعمال الرسمية.. وهذه الوثائق تشكل من غير شك مصادر للمعومات الدقيقة نظرا لحرص الجهات الرسمية على دقة هذه الوثائق واكتمالها وحفظها بعناية..

٢ ـ التقارير الصحفية:

على الرغم من أن هذه التقارير لا تكون دائما دقيقة فى التفاصيل التى تنشرها (وحتى الحقائق يمكن ان تفسرها أو تعرضها بأكثر من طريقة واحدة)، فإن هذه التقارير ـ خصوصا تلك التى تنشر فى الصحفية أو الصحف المحترمة ـ تزودنا عادة بالحقائق الضرورية، وتعتبر سجلا دائما للأحداث التى تحدث يوما بعد يوم فى العالم..

وتزداد أهمية الصحف كمصادر للمعلومات، عندما لا تكون هناك رقابة عليها

فى البلد الذى تصدر فيه، ومع الرقابة تصبح الصحف مجرد وسط اعلامى للدعاية الرسمية حيث تميل نحو التحيز السياسى أو الاقتصادى وتتشكل الافتتاحيات وكتابات التحرير طبقا لذلك.. ولكن يجب على كل حال أن نميز بين التقرير الحقيقى والتعبير عن الرأى (كما هو الحال فى مقال رئيس تحرير احدى المجلات)... ومن الواضح أن الصحف والمجلات لا تكون بدقة واكتمال المصادر الرسمية أو العلماء... وعلى ذلك فعلى الباحث أن يستخدم الصحف والمجلات عند عدم توفر المسجلات الرسمية..

٣ - تقارير شهود العيان عن الأحداث:

إذا لم يستطع الباحث ان يشهد الأحداث بنفسه (وهذا ما سوف يحدث عادة خصوصا فيما يتعلق بالقضايا التاريخية)، فإن وجود أحد الأشخاص الذين شهدوا الأحداث يعتبر مصدرا للمعلومات مرغوبا فيه.. وتأخذ هذه الشهادة الشكل الشفوى (عندما يتحدث الباحث مع الشاهد) أو تأخذ شكلا مكتوبا...

فعند دراسة أحوال المدارس فى الكويت منذ نصف قرن مثلا، فمن المفيد التحدث إلى شخص تعلم أو درس فى احدى هذه المدارس التى تعتبر نموذجا لمدارس هذا الوقت.

ونظرا لعدم الاطمئنان إلى الذاكرة الانسانية، فإن شهادة شاهد عيان «مكتوبة» وقت الأحداث نفسها سوف تكون أكثر ثقة من محاولة الشخص تذكر الأحداث بعد مضى وقت طويل عليها... أى أن التقرير أو السجل المكتوب يبدو عادة أكثر مدعاة للثقة من التقرير الشفوى.. وإن كان ذلك ليس صحيحا على إطلاقه..

٤ - المصادر الشخصية (كالرسائل والمفكرات):

يفترض أن الأوراق الشخصية كالرسائل والمفكرات لم يكتبها أصحابها بغرض النشر، وعلى ذلك فهى تكشف معلومات عن الأحداث أكثر تفصيلا وصراحة مما تفعله الوثائق والمسجلات العامة. وهذه البيانات والمعلومات التى يستقيها الباحث

من الكتابات الشخصية، تعتبر ذات أهمية فى عمل الدراسات البيوجرافية (تاريخ الأشخاص) ...

٥ ـ المذكرات والتراجم: Biograhies, autobiographies and memoirs

وهذه المصادر ـ إذا كانت موثوقاً فيها ـ تكون مفيدة فى مراجعة الحقائق المتوفرة فعلا عن حياة الشخص، ولكن هذه المصادر نادرا ما تؤسس حقائق جديدة.. ومن المفضل من غير شكل الاستعانة بالمصادر المباشرة والأصلية (كما ذكرنا مسبقا) إذا أمكن الحصول عليها.. كما أن المعلومات المنشورة فى قصة حياة الأشخاص الذين تهمنا مذكراتهم يمكن أن تفيد فى تتبع نمو وتأثير بعض الحركات أو الأفكار التاريخية، إن حياة وأفكار الرجال الذين وضعوا الدساتير الأولى فى حياة الأمة، أو أولئك الذين قاموا بالثورة الوطنية ـ لها أهمية بالغة فى الدراسات السياسية والاجتماعية والتاريخية وغيرها..

٦ ـ الدراسات والكتابات التاريخية:

وإذا اعتمدت هذه الدراسات على الفحص العلمى.. فإن الكتابات التاريخية يمكن استخدامها بعض الثقة، وإن كان فحص المواد والمصادر الأصيلة يكون أفضل دائما..ان المستخلصات التاريخية تعتمد عادة على المصادر المباشرة Direct Sources.

٧ ـ الدراسات الوصفية التى تمت فى وقت سابق:

إذا لم يكن بالإمكان تكرار نفس الدراسات العلمية التى تمت فى وقت مسبق (مثل القيام بتجارب أو دراسات مسحية)، فإن هذه الدراسات تصبح مصدراً وثائقيا للمعلومات.. وتقرير الدراسة يستخدم بنفس الطريقة التى تستخدم بها أى وثيقة تاريخية أخرى..

٨ ـ الكتابات الأدبية والفلسفية:

إن الانتاج الأدبى كالأشعار والروايات والمسرحيات والمقالات.. يمكن أن تزودنا

بالمعلومات عن الأحداث الفعلية.. ولكن الباحث يميل غالبا إلى فحص هذا الانتاج بالنسبة للأفكار التى تحتويها.. وفى الدراسات الأدبية واللغوية فإن الكتابات نفسها تشكل المصدر الضرورى الحقيقى الوحيد عن البيانات والمعلومات..

٩ ـ البقايا الأثرية والجيولوجية:

وعلى الرغم من أن هذه المسجلات لا تعتبر وثائق كالمسجلات المكتوبة إلا أن البقايا الجيولوجية تؤدى نفس الغرض فى البحث التاريخى... فهى تدرس بنفس الطريقة وهى تكشف عن بيانات تستخدم فى تكوين النتائج والفروض...

١٠ ـ متنوعات وأعمال أخرى: Miscellaneous

وهذه تشمل الأعمال الفنية والموسيقية والآثار والمخلفات وغيرها من مصادر المعلومات المختلفة التى تعتبر مصادر وثائقية هامة فى أنواع معينة من البحوث أو فى حالة عدم وجود معلومات وبيانات أخرى..

إن العمل الرئيسى الذى يواجه الباحث الذى يقوم بحل مشكلة تتطلب الدليل الوثائقى، هو تحديد واختيار الوثائق نفسها.. وهذه الوثائق قد لا تكون سهلة المنال وتحتاج إلى عمل وصبر عظيمين لاكتشافها والحصول عليها. والمشكلة التى تتضمن البحث الوثائقى، لا يمكن حلها دون فحص المواد التى تحتوى على الدليل الضرورى.

اهمية المصادر الأولية:

من الأمور المتفق عليها أن الباحث لا ينبغى أبداً أن يستخدم نسخة من إحدى الوثائق إذا كان باستطاعته أن يرى الأصل.. وعلى الرغم من أن صورة الوثيقة (إذا أحسن تصويرها) تكفى أحيانا كبديل للأصل إلا أن الباحث ينبغى أن يكون حريصاً على الإطلاع على الوثيقة الأصلية.. ويزداد هذا الحرص إذا كانت الوثيقة (منشورة)... ذلك لأن الخطاب المخطوط فعلا (الوثيقة) قد يدخل عليه بعض الأخطاء التى تغير من معالمه الأصلية والغرض منه.

والوثيقة التي تعتبر مصدراً أولياً هي ـ في معظم الأحوال المسجل المكتوب لما رآه الكاتب فعلا أو سمعه. ويمكن أن يكون التقرير الصحفي مصدراً أولياً إذا شاهد المراسل الصحفي بنفسه الحدث الذي يكتب عنه.. ولكن المواد التي يقتبسها مؤلف معين من كتابات مؤلف آخر، لا يمكن اعتبارها مصدراً أوليا.. وعلى الباحث قبل أن يستخدم هذه المعلومات والبيانات أن يطلع على الأصل المنشور أو غير المنشور للمواد التي اقتبس منها. والكتب والحوليات والموسوعات وغيرها من المصادر التي تنشر الملخصات والموجزات لا تعتبر مصادر أولية، ذلك لأن هذه المراجع تعتمد في الأفكار والحقائق التي تنشرها لا على الملاحظة المباشرة ولكن على كتابات الآخرين.

والمعلومات والبيانات التي تمر على أيد كثيرة قبل أن تصل إلى يد الباحث ـ شأنها في ذلك شأن الاشاعات Rumors ـ لا تحمل إلا قليلا من الشبه مع النص الأصلي.. والسبب في ذلك يعود إلى الأخطاء المقصودة أو غير المقصودة التي يقوم بها كاتب الآلة الكاتبة أو الطابع أو المحرر.... الخ... وقد أثبت البحث الدقيق في كثير من الحالات أن النصوص الأدبية أو التصريحات السياسة التي كانت تعزى لأفراد معينين، هي بعيدة كل البعد عما كتبوه أو قالوه.. وعلى ذلك فإن الأساس الثابت الوحيد للنتائج التي يمكن أن يصل إليها الباحث في البحوث الوثائقية إنما يعتمد على استخدم المصادر الأولية.. أي تلك المصادر القريبة على قدر المستطاع من الظاهرة الفعلية التي تخضع للبحث... ويذهب الباحث إلى أن الوثيقة المفقودة هي كصفحة انتزعت من كتاب تاريخ الانسان..

التقييم الخارجي للوثائق:

ويتصل هذا التقييم بالتعرف على أصالة الوثيقة (Authenticity) (وهناك التقييم الداخلي الذي يهتم بمعنى ودقة وقيمة البيانات التي تحتويها الوثيقة). أن عدد المزورين في التاريخ الانساني كبير. فضلا عن أن هناك دائما فرصة وجود خطأ غير مقصود.. ومن أشهر قصص التزوير في التاريخ الغربي قصة التزوير المشهورة باسم هبة قسطنطين Donation Of Constantine، وقد حدثت في القرن الثامن ـ وعلى

الأرجح بواسطة أحد رجال رجال الكنيسة ـ وقد خولت الوثيقة المزورة للامبراطور السلطة السياسية على جميع قطاعات ايطاليا. هذه وغيرها كثير من الوثائق المزورة والتى عرفت باسم الأحكام البابوية الزائفة False Decretals، وقد كشف عن زيفها فى القرن الخامس عشر عالم الانسانيات الشهير لورنتيوس فالا Laurentius Valla.

وهناك كثير من التزوير يقوم به بعض المؤلفين والناشرين لإعادة طبع كتب معينة يعتقد بأنها نادرة ثم يبيعونها بأغلى الأثمان... بالإضافة إلى تزوير الوثائق ونشرها لتحقيق أهداف مالية أو سياسية أو قانونية معينة..

ومن القصص المشهورة عن هذا التزوير الرسائل الشخصية التى كتبها لينكولن بخط يده وظهرت فى السوق مليئة بالأخطاء الواضحة والتى يسهل إثبات تزويرها وزيفها.. وفى أحد هذه الخطابات أشار لينكولن إلى ولاية كانساس فى فترة لم تكن هذه الولاية قد أصبحت جزءاً من الولايات المتحدة بعد..

وهذه المحاولات يمكن أن يثبت تزويرها وزيفها بالتقييم الخارجى الدقيق الهادئ لكل وثيقة موضع الدراسة..

وهذه القاعدة تنطبق على الوثائق «الجديدة» بصفة أساسية، أى تلك الوثائق التى لم تقيم بعناية فى الماضى.. وهناك فى كل مجال أكاديمى وثائق لا حصر لها والتى أصبحت أصالتها ثابتة.. ومع ذلك فينبغى على الباحث ـ كقاعدة عامة ـ أن يتبنى موقف الشك ولا يأخذ أى شئ كقضية مسلمة..

ويدرك الباحث أهمية الفحص المقارن للمسجلات المكتوبة ـ خصوصاً المسجلات غير الرسمية ـ بالمخطوطة المكتوبة بخط يد الشخص نفسه Autograph Manuscript وذلك للتعرف على درجة التشابه أو الاختلاف بين الخطين.. ومع ذلك فمن العسير تحديد كاتب وثيقة معينة بطريقة لا ينالها الشك.. وحتى التوقيع يمكن أن يسبب مشاكل للتأكد من صحته..

وهناك بالإضافة إلى طريقة المقارنة المذكورة، وسائل أخرى لتقييم أصالة الوثيقة مثل التحليل الكيميائى والطبيعى للمادة التى كتبت عليها. لقد تغير فن صناعةالورق بالتدريج على مر السنين، ويمكن للباحث أن يحدد تاريخ الوثيقة بمعرفة مكان وزمان صناعة الورق.. وينطبق هذا التحليل الكيميائى على الحبر المستخدم فضلا على طريقة الاخراج وسلامة الحروف والطباعة وحجمها وشكلها ما كان مستخدماً منها فى ذلك الوقت.

ويستعين الباحث فى التأكد من ذلك لا بالمعمل الكيميائى فحسب بل بالعدسة المكبرة والميكروسكوب والكاميرا وغير ذلك من الوسائل التى تحدد درجة أصالة أو زيف الوثائق، كالأشعة فوق البنفسجية والتصوير بالفلوريسنت... الخ.

وعلى كل حال فالوثائق بالنسبة للباحث هى بمثابة الشاهد للمحامى فى قاعة المحكمة.. أى أن الوثائق هى مصادر للمعلومات يجب استخراج البيانات والمعلومات المتعلقة منها... وقبل أن تقبل المحكمة شهادة الشاهد فإنها تتأكد من هويته وتقيم مقدار الثقة فيه..

وهناك بعض الأسئلة القليلة التى يحرص الباحث على الإجابة عليها عند فحص الوثيقة وأهمها:

- من الذى ألف هذه الوثيقة؟
- من الذى ألف هذه الوثيقة؟
- هل العلاقة بينه وبين الوثيقة علاقة طبيعية ومقبولة Plausible ؟
- هل موضوع الوثيقة يمكن أن يكون داخل نطاق معارف هذا المؤلف؟
- هل يمكن أن يكون هذا المؤلف فى المكان المبين وفى الزمن المبين بالوثيقة؟
- هل المعلومات الموجودة بالوثيقة، قد وضعها المؤلف بنفسه فى الوثيقة أم أنه نسخها ونقلها عن شخص آخر؟

ـ هل البيانات والمعلومات الموجودة بالوثيقة تتفق مع المستوى المعروف لذكاء المؤلف وتعليمه وخبرته ومزاجه وطباعه؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة ـ وغيرها كثير ـ تساعد الباحث على الوصول إلى حكم سليم بالنسبة لأصالة الوثيقة من عدمها..

التقييم الداخلي للوثائقي:

إذا كان التقييم الخارجي يهتم بهوية الوثيقة وأصالتها، فإن التقييم الداخلي يهتم بما تحتويه هذه الوثيقة... بما تقوله... بمعناها... بدقتها.... وبالثقة العامة في المعلومات الموجودة بها... أي أنه عندما تثبت أصالة الوثيقة، فإن الباحث يجب أن يسأل نفسه عن دلالتها كمصدر للمعلومات. وكذلك عن أي نوع من البيانات تزودنا به الوثيقة لخدمة الغرض الذي نحن بصدده، وهو حل مشكلة البحث.

فعندما نتناول المسجلات المكتوبة Written Records يجب أن نتأكد من معاني الكلمات والرموز الموجودة بها. فكثيرا ما يحدث أن تكون لغة المخطوطة أو الوثيقة مميزة لفترة من الفترات (اللغة العربية في العصر الجاهلي، اللغة الانجليزية القديمة Old English) والتي لا يستخدم كثير من تعبيراتها في الوقت الحاضر... وفي أحيان أخرى قد يستلزم الأمر حل شفرة أو رموز (decipher) سجل معين كتبت به مذكرات أحد الزعماء أو مشاهير الأدب أو الفن.. الخ.

لقد اكتشف الباحثون علامات غريبة وصوراً على الآثار الحجرية وعلى ورق البردي في مصر.. كما اكتشف الباحثون صورا أخرى وعلامات من نوع آخر على أقراص الطين المحروق Baked Clay في أرض ما بين النهرين (العراق) وقد ظلت هذه العلامات والصور سنين طويلة دون ترجمة مدلولها...

وفي حوالي عام ١٨٠٠ استطاع جورج فدريدريخ جروتيفيند George Friedrich Grotefend أن يكتشف أسرر الكتابة المسمارية الأشورية في بلاد فارس القديمة، كما استطاع جين فرانسوا شامبليون Champollion Jean François

بعد ذلك بحوالى عشرين عاما أن يترجم اللغة الهيروغليفية فى مصر القديمة عن طريق دراسته لحجر رشيد Rosetta Stone.

هذا ويحتل تفسير النصوص أهمية كبيرة فى كثير من الدراسات الأدبية والفلسفية والدينية والسياسية وغيرها حيث تدرس الكلمات والمصطلحات فى بعض الأعمال دراسة عميقة للتعرف على المعنى الذى يقصده الكاتب.

وقد تكون دراسة عصر المؤلف أو بلده عنصراً أساسياً وضرورياً لفهم كتاباته، ذلك لأن ما يقصده الناس بمصطلحات أو تعبيرات معينة فى زمن معين قد يكون له معنى ومدلول آخر عن استخدام الناس فى الزمن المعاصر.. وعلى سبيل المثال فقد كان الناس أيام الكاتب شوسر Chaucer يستخدمون فى كتاباتهم الأرقام ٢٠، ٥٠ للدلالة على «عدد كبير» ونتيجة ذلك عندما تحدث شوسر عن ملكيته لعشرين كتاباً، فان الباحثين يفسرون لذلك لا بمعنى العدد المحدد وهو «عشرين» بل يفسرون ذلك على أن شوسر كانت له مكتبة بها كتب كثيرة وربما نستخدم نحن الآن مصطلح «ألف صنف وصنف» لا للدلالة على عدد معين ولكن للتعبير عن عدد غير محدد من الأصناف

إن تفسير معنى الوثيقة يمكن أن يكون شيئا فى غاية السهولة كما يمكن أن يكون شيئا بالغ التعقيد... يتطلب فى بعض الأحيان المعرفة الدقيقة بالتاريخ واللغات والسياسة والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس وغيرها من الدراسات... وفهم المقصود بالوثيقة ذو أهمية بالغة إذا أراد الباحث أن يعتمد على المعلومات والبيانات الواردة بالوثيقة لحل المشكلة التى تواجهه.

دقة الوثائق وصدقها:

وإذا ما تحددت المعانى الموجودة بالوثيقة تحديدا واضحا، فإن الخطوة التالية فى تقييم الوثيقة داخليا هى تقدير دقة وصدق هذه المعلومات الواردة بالوثيقة.. ويجب على الباحث أن يتساءل عن مقدار كفاءة المؤلف ونزاهته وسمعته واهتمامه

بالموضوع؟ وهل كانت له وجهة نظر خاصة متميزة؟ وهل قام بملاحظاته بنفسه أم أنه نقل عن الآخرين؟ ومن المعروف أن اثنين ممن رأوا نفس الحدث قد يكون لهما تفسيرات مختلفة تبعاً لأسباب وتبريرات كثيرة.. وإذا ما حدث نزاع بين العمال وأصحاب العمل... فإن ممثلي أولئك وهؤلاء غالبا ما يختلفون لا على تفسير الأحداث فحسب بل على وصف وبيان الحقائق المتعلقة بالموضوع... والكتاب عن شخصية قائد مثل جمال عبد الناصر سيختلفون فيما بينهم فى تفسير أعماله ودوافعه وانطباعاتهم عنه... وخلاصة هذا كله أن الباحث لا يستطيع أن يتقبل المعلومات الواردة حتى فى الوثائق الأصيلة على علاتها وطبقاً لتفسير صاحبها... بل يجب على الباحث أن يستخدم كل وسيلة ممكنة للتأكد من مقدار صدق الكاتب والثقة فيما يكتبه... وعلى العموم ففى واقع الأمر، ليس هناك وثيقة تثبت دقتها المطلقة واكتمال معلوماتها عند فحصها الفحص العميق... ذلك لأن الأخطاء الانسانية تزحف فى كل مكان. وغاية ما يمكن أن نقوله هو أن بعض الوثائق فقط تثبت صحته ودقتها واكتمالها أكثر من غيرها.

بعض المخاطر في استخدام الوثائق:

لقد تركز اهتمامنا السابق على المزالق التى تتصل بالوثيقة نفسها فى أصالتها وصلاحيتها كدليل ودقتها.. وغير ذلك، وهناك مخاطر رئيسية فى استخدام هذه الوثائق، أولها هو عدم كفاية المعلومات والبيانات فيها. وثانيها، الاختيارغير السليم للمعلومات من هذه الوثائق... أى أخذ حقائق مبتسرة وإظهار جزء من الدليل وإغفال الجزء الآخر...

أشكال الدراسة الوثائقية:

لماكانت جميع المعلومات عن الماضى تأتينا من الوثائق والمسجلات فإن طريقة البحث الوثائقى هى الطريقة الوحيدة فى الدراسات التاريخية... ولكن طريقة البحث الوثائقى تلعب دوراً هاماً كذلك بالنسبة للدراسة العلمية المتعمقة، وتتناول خطوط هذه الدراسة ميادين كثيرة مثل:

(أ) تاريخ الحياة Biography.

(ب) تاريخ المؤسسات والهيئات .

(جـ) المصادر والتأثيرات.

(د) التحرير.

(هـ) تاريخ الأفكار.

(و) الببليوجرافيا.

ويعنى البحث البيوجرافى تحديد وتقديم الحقائق الأساسية عن حياة وشخصية وانجازات شخص هام فى مجال البحث الدراسى... فعالم الأب سيتقصى حياة رجال ونساء الأدب، ودارس التربية سيتعرف على رجال التعليم والعالم يهتم بحياة العلماء الآخرين وهكذا وهؤلاء جميعا يجب أن يستخدموا طريقة البحث الوثائقى ذلك لأن الحقائق الضرورية لتاريخ حياة الشخص لا يمكن تجميعها بالتجربة أو المسح أو دراسة الحالة ويصدق تاريخ الأفراد على تاريخ المؤسسات والهيئات

أما بالنسبة لدراسة المصادر والتأثيرات فهذه تتضمن محاولة تعلم كيفية تأثر أفكار الشخص (أو الجماعة) وكتاباته وإنجازاته الأخرى، بعوامل التعليم والأصدقاء المحيطين به والقراءة واحداث حياته اليومية والبيئة المحيطة به... وتتم هذه الدراسة باكتشاف الدليل الواضح عن هذه التأثيرات فى كتابات الشخص أو تصريحاته الشفوية أو سلوكه العام.. ففى الأدب مثلا نجد كاتبا معينا متأثرا بكاتب آخر، ونحن نذكر ان داروين قد تأثر فى نظرية «الصراع من أجل البقاء» بأفكار مالتوس Malthus عن السكان وهكذا..

أما بالنسبة لتحرير عمل أو أعمال مؤلف معين، لانتاج نص حديث يصلح للقراءة، أو نشر وثيقة نادرة ذات أهمية ودلالة فى مجال معين. هذه وغيرها من النشاطات الأكاديمية المشابهة تعتبر شكلا مفيدا من أشكال الدراسة الوثائقية.. وقد يعنى ذلك أحيانا مجرد إعادة طبع مؤلف عام... ولكن اختيار هذا المؤلف ليس بالأمر

السهل.. كما قد تكون الترجمة أحد أوجه نشاط عملية التحرير... إن دراسة تاريخ الأفكار يتطلب تتبع الآراء والموضوعات الفلسفية والعلمية من أصولها وأشكالها الأولى خلال مراحل تطورها أو تتبع التغييرات التى حدثت فى التفكير الشعبى واتجاهات الناس على مدى فترة معينة من الزمن... وفكرة عن نظرية التطور البيولوجى مثلاً يمكن تتبعها من أصلها القديم أيام الفلسفة اليونانية أو قبل ذلك حتى الوضع الحاضر وتأثير العلم الحديث.

وأخيراً فإن تجميع ببليوجرافيا موضوعية يتطلب البحث الوثائقى أيضا... ذلك لأن الببليوجرافيات تقدم للعلم والبحث خدمات أساسية ضرورية بما تقدمه للباحثين من قوائم بالأعمال والبحوث التى تمت فى مجال محدد...

وبالتالى تعمل الببليوجرافيات على اختصار الوقت الذى ينفقه الباحث فى تحديد المواد اللازمة لدراسته..

على كل حال... فاستخدامات البحث الوثائقى كثيرة ومتنوعة.. وطريقة البحث هذه مستخدمة أكثر من غيرها فى مجالات الفن والجيولوجيا والتاريخ واللغات والأدب والموسيقى والفسلفة والعلوم السياسية. وفى مجالات أخرى كالجيولوجيا والكيمياء والاقتصاد والتعليم والجغرافيا والرياضيات والفيزياء وعلم النفس والاجتماع ـ فان استخدام طريقة البحث التاريخى يكون أقل من غيرها من الطرق.. ولكنها ما زالت طريقة مفيدة جدا فى هذه المجالات أيضا سواء بمفردها أو كطريقة مكملة لطرق البحث الأخرى.

الفروض في البحث الوثائقي:

ربما يذهب البعض إلى القول بأن البحث فى الوثائق والمسجلات هو بحث يهتم بالتنقيب عن الحقائق Fact Finding، وأن الفروض نادرة فى هذا المجال.. ونحن نؤكد مرة أخرى بأن أكبر نتائج البحث فائدة ودلالة تكون فى التعميمات والمبادئ المستمدة من البيانات والمعلومات الحقيقية... والبحث الوثائقى من هذه الناحية قد أدى إلى تعميمات ـ وفروض كثيرة...

والباحثون فى العلوم الاجتماعية والانسانية بصفة عامة، يدركون ويلاحظون الفروض أو التفسيرات للأحداث التاريخية خلال فترة معينة (خصوصا فيما يتعلق بالتعرف على كيفية وسبب وقوع هذه الأحداث)... فدراسة التاريخ العربى مثلا، خلال ربع القرن الأخير ربما أدت بنا إلى تفسيرات أو فروض تتعلق بارتباط الأحداث فى هذا الجزء من العالم ببداية انحسار الاستعمار البريطانى الفرنسى، وبزرع الدولة الصهيونية فى قلب الوطن العربى بتأييد القوتين المنتصرتين بعد الحرب العالمية الثانية (روسيا وأمريكا) واعتماد هؤلاء والصهاينة على تعميق الصراعات الداخلية فى الوطن العربى سواء على المستوى القطرى أو القومى... وربما أدى بنا البحث الوثائقى والدراسات التاريخية للأحداث إلى الوصول إلى تعميمات ونتائج تشير الطرق والبدائل التى يمكن أن يسلكها العرب.

ونحن نلاحظ أنه يمكن رد هذه الحالة (أو وضع الفروض) إلى التخلف الحضارى (بأبعاده الثقافية والايديولوجية والاقتصادية والتكنولوجية والعسكرية وغيرها) أو تأكيد العامل الاقتصادى مثلا أو غير ذلك من التفسيرات والفروض.

ومن الواضح أن كل واحدة من هذه التفسيرات تمثل تعميمات موضوعة بحرص وعناية معتمدة على البيانات الحقيقية المستمدة من تحليل الوثائق...

ولقد أشرنا إلى هذه النماذج السابقة فقط ـ دون الدخول فى مناقشات نقدية ـ وذلك للدلالة على مكان الفرض فى البحث الوثائقى.. أى أن استخدام الأسلوب الوثائقى يتضمن أكثر من مجرد تجميع الحقائق...

خصائص الدليل: Qualities of Evidence

لقد أشرنا فيما سبق إلى نوع الدليل المقبول فى البحث.. والدليل ـ كما هو الحال فى المحاكم ـ يجب أن يكون متعلقا Relevant بالموضوع وأن يكون محسوسا Material وأن يكون كافيا Competent.. وهذه هى الاختبارات التى تطبقها على جميع الوثائق والبيانات والمعلومات التى تحتويها هذه الوثائق...

فالدليل الذى تقدمه الوثيقة يعتبر متعلقا بالمشكلة إذا كان له وزن حقيقى بالنسبة لهذه المشكلة، وإذا لم يكن لهذا الدليل علاقة بالموضوع فلا يجب تقديمه كدليل مناسب... وقد تكون البيانات والمعلومات متعلقة بالمشكلة ولكن ليس لهذه المعلومات وزن حقيقى... وبمعنى آخر يمكن إهمالها والاستغناء عنها بسهولة.. هذه البيانات والمعلومات ليست مادية محسوسة، وبالتالى فليس هناك حاجة إلى اعتبارها دليلا مقبولا... وأخيراً فيتبقى جانب الكفاية والأهلية Competence وتعتبر الوثيقة دليلا كافياً إذا ثبتت أصالتها، وإذا كانت بياناتها ومعلوماتها دقيقة ومناسبة. فالوثيقة الأصلية هى دليل طيب للشهادة..

وإذا كنا قد أكدنا على استخدام الدليل الأولى باعتباره أساس البحث الوثائقى أو التاريخى... وباعتباره أقرب ما يمكن للحدث نفسه.. فقد يكون للدليل أو المصدر الثانوى نفس أهمية الدليل الأولى..

هذا ويستخدم الباحث الدليل الثانوى فى الأحوال التالية:

١ ـ كمعلومات خلفية عامة عن الحدث أو الشخص... الخ.

٢ ـ بعض أنواع المعلومات التى يحتاجها الباحث وتون غير متوفرة فى مكان آخر.

٣ ـ التأكد من أن العمل الذى يقوم الباحث بفحصه ودراسته لم يقم به شخص آخر.

٤ ـ الإفادة من أخطاء الآخرين الذين سبقوا الباحث.

٥ ـ يستعين به الباحث أيضا فى وضع تفسيره بالنسبة للفرض الخاص بمشكلة البحث وبالنسبة للنتائج التى يصل إليها...

ملخص البحث الوثائقي:

لعل المنهج الوثائقى أو التاريخى يعتبر أقدم مناهج البحث.. وهو كمنهج يتطلب تحديد مشكلة البحث وتجميع الحقائق والمعلومات المتعلقة بتلك المشكلة وتحديد

مصادر هذه الحقائق الأولية والثانوية، ثم تصنيف هذه الحقائق وتحليلها وإيجاد العلاقة فيما بينها ثم عرض النتائج وتفسيرها...

وما يهمنا فى دراستنا للمنهج الوثائقى أنه طريقة لإختبار الفرض، بتحديد وتحليل البيانات والمعلومات من الوثائق والمسجلات ذات الأشكال المتعددة... وهذه الأشكال تتراوح ما بين الآثار المكتوبة أو المطبوعة إلى التعليقات الشخصية المكتوبة والشفوية بالاضافة إلى الآثار والبقايا الاركيولوجية والجيولوجية..

وطريقة البحث الوثائقى مستخدمة فى مختلف المجالات العلمية. ولكنها مستخدمة بكثرة فى التاريخ واللغات والأدب والفلسفة وغيرها من المجالات المتعلقة...

ويجب على الباحث ـ بعد أن يحدد الوثيقة ـ أن يقيمها خارجيا وداخليا للتأكد من أصالتها، ومن علاقتها بموضوع الدراسة... ومن ناحية قبولها كدليل.

ويمكن أن يقال ـ بصفة عامة ـ أنه يجب استخدام المصادر الأولية وحدها (إذا توفرت هذه المصادر بالطبع). ومخاطر طريقة البحث التاريخى هى قلة البيانات والمعلومات بدرجة كبيرة فضلا عن عدم الاختيار الصحيح للمعلومات المتعلقة بالموضوع.

وقبل أن ينتهى الباحث إلى نتائج أخيرة فى دراسته، يجب عليه أن يكون مقتنعا ـ بما لا يقبل أى شك ـ باكتمال معلوماته الوثائقية، وأن يتوفر فيها شروط الدليل المقبول، وهو أن يكون متعلقا بالموضوع وأن يكون ماديا محسوسا، وأن يكون كافيا..

الفصل الخامس عشر

المنهج التجريبى فى البحث

يعتبر المنهج التجريبى أقرب مناهج البحوث لحل المشاكل بالطريقة العلمية. والتجريب سواء تم فى المعمل أو فى قاعة الدراسة أو فى أى مجال آخر... هو محاولة للتحكم فى جميع المتغيرات والعوامل الأساسية باستثناء متغير واحد.. حيث يقوم الباحث بتطويعه أو تغييره بهدف تحديد وقياس تأثيره فى العملية.

وتجربة المعمل هى أقوى الطرق التقليدية، التى نستطيع بواسطتها اكتشاف وتطوير معارفنا عن التنبؤ، والتحكم فى الأحداث... وهى ناجحة فى العلوم الطبيعية من غير شك. وهناك بعض المحاولات الناجحة أيضا لاستخدامها فى العلوم الاجتماعية والانسانية.

وسنتناول فى هذا الفصل طبيعة التجارب العلمية وأنواعها، ثم نقوم ببيان عناصر التجربة وخطواتها، ثم نشير إلى قواعد تصميمات التجارب كما وضعها جون ستيوارت ميل ثم نناقش تجربة المعمل والتجارب مع الناس.. وأخيراً نناقش الصعوبات التى يجب أن يتجنبها الباحث....

أولاً ـ طبيعة التجارب العلمية وانواعها:

يستخدم كثير من الباحثين فى مجال العلوم الطبيعية اصطلاح التجربة Experiment كمرادف للمنهج العلمى أو الطريقة العلمية... كما أن العلوم

التجريبية فى نظر هؤلاء الباحثين هى العلوم الطبيعية... ولكن مثل هذه الاستخدامات ـ على الرغم من الحماس الذى يدافع به عنها أصحابها ـ لا تعبر إلا عن التقدير والحكم الخاطئ الذى لا عمق فيه.... ذلك لأن التجربة لا تمثل جميع خطوات وجوانب المنهج العلمى المتعددة، على الرغم من أنها تعتبر شكلاً هاما من أشكال النشاط العلمى (١).

هذا ومن المتوقع أن تكشف التجربة عن العلاقات السببية، وبمعنى آخر... فالتجربة تتناول الديناميات والقوى والتفاعلات... ومن هنا فلا يتم إجراء التجارب وتصميمها ببساطة، لإعطاء صورة وصفية للوضع الموجود.... أو الحصول على سجل زمنى أو تاريخى للنمو أو التغير الطبيعى فالغرض من التجربة إذن، هو الكشف عن العلاقات السببية مهما اختلف تصميم التجربة وشكلها....

ويقول بيفردج «تتضمن التجربة أن يجعل الباحث حدثاً معيناً ـ يحدث ـ تحت ظروف معروفة، مع استبعاد جميع التأثيرات الخارجية على قدر الإمكان، وعلى أن يكون باستطاعة الباحث ملاحظة ذلك بدقة حتى يمكنه اكتشاف العلاقات بين الظواهر المختلفة» (٢).

كما يذهب «شابين» إلى أن التجريب Experimentation ما هو إلا «ملاحظة تحت ظروف محكومة» ويتحقق التحكم فى نظر شابين عادة عن طريق اختيار بعض الحالات Cases أو عن طريق تطويع بعض العوامل (٣).

فالتجربة إذن هى ملاحظة مقصودة تحت ظروف محكومة، ويقوم بها الباحث لاختبار الفرض والحصول على العلاقات السببية... كما أن أفضل الظروف التى يمكن أن تتم فيها التجربة هى التحكم فى جميع العوامل والمتغيرات باستثناء عامل واحد.

(١) Good, Carter V. and Scates, Douglas S. op. cit, p. 697.

(٢) Beveridge, W.I.B. The Art of Scientific Investigation, New York, W.W. Norton and Co, 1950,p.13.

(٣) Chapin, F.S. Exerimental Desigen in Sociolgical Research, New York, Harper and Bros, 1947,p.1.

أما بالنسبة لأنواع التجارب العلمية فقد تقسم كما يلى:

١ ـ التجارب المعملية والتجارب مع الناس:

والأولى تتميز بالضبط والتحكم والتطويع من جانب الباحث، ومن ثم يمكن تكرارها فى أى وقت. أما فى التجارب مع الناس فيضع الباحث فرضه عن طريق تجميع المعلومات من الظواهر الطبيعية بدلاً من اصطناعها.

٢ ـ التجارب التى تستخدم فيها مجموعة واحدة من الأفراد أو أكثر:

وفى الحالة الأولى يتعرف الباحث على اتجاهات أفراد المجموعة ثم يدخل العامل التجريبى عليها ويتعرف على اتجاه افراد المجموعة نفسها بعد ذلك... والفرق بين القياسين ـ إذا وجد ـ يكون راجعاً للعامل التجريبى. أما إذا استخدم الباحث مجموعتين فتكون احداهما «تجريبية» والأخرى «ضابطة» حيث يفترض أن المجموعتين متساويتان من جميع الوجوه... ثم يدخل الباحث العامل التجريبى على المجموعة التجريبية فقط.... ويقيس بعد ذلك اتجاه المجموعتين والفرق بين المجموعة الضابطة والتجريبية ـ إذا وجد ـ يعود إلى العامل التجريبى.

٣ ـ التجارب التى تستغرق وقتا طويلا لإثبات الفرض:

(كأثر دراسة المرحلة المتوسطة على التعلم السياسى) والتجارب التى يمكن إثبات الفرض فيها فى زمن قصير (كتأثير بعض البرامج الاذاعية فى تغيير اتجاهات الأفراد) [١].

ثانياً ـ عناصر التجربة والمنهج التجريبي:

تجربة سانتشى على الحشرات

فى مطلع القرن العشرين كان عالم الحشرات فيلكس سانتشى Felix Santschi مشغولاً فى دراسة سلوك النمل العادى... وقد قادته بعض ملاحظاته إلى

(١) انظر فى هذا التقسيم: عبد الباسط محمد حسن. المرجع السابق: ص ٤٢٥ – ٤٢٨.

«فرض معين» هو أن النمل ربما يعتمد على ضوء الشمس فى تحديد اتجاهاته... وحتى يضع فرضه هذا تحت الاختبار... فقد صمم سانتشى خطة تجربة، حيث اختار قطعة عشب فى مكان لا يبعد كثيرا عن بيت النمل، ثم وضع على أحد جوانب هذه القطعة شيئاً معتماً يحجب ضوء الشمس ووضع على الجانب الآخر لهذه القطعة مرآة مائلة... وانتظر بهدوء حتى تظهر نملة بمفردها فى طريق عودتها إلى بيتها، ثم وضع الباحث الستر المعتم فى مكان يستطيع أن يحجب به أشعة الشمس المباشرة عن رؤيا النملة ثم حرك المرآة المائلة بحيث تنعكس أشعة الشمس بواسطتها على النملة من اتجاه بعيد عن الشمس نفسها... ومعنى ذلك بالنسبة للنملة أن الشمس التى كانت تشع من الغرب، أصبحت تشع من الشرق... وقد لاحظ الباحث أن النملة توقفت فجأة.. وبعد فترة قصيرة حولت مسيرتها إلى الاتجاه المعاكس... أى بعيداً عن بيتها. وقد علل فيلكس الباحث هذا التصرف على أن النملة كانت تستخدم الشمس كأداة لتحديد اتجاهها...

بعض عناصر التجربة:

إن طريقة سانتشى فى الملاحظة توضح فى شكل مبسط العناصر الأساسية للبحث التجريبى... أى اختبار الفرض عن طريق توفير ظروف صناعية يمكن التحكم فيها بالملاحظة... فبدلا من أن يصل الباحث إلى نتائجه عن طريق المنطق أو من ملاحظته للأشياء تحت الظروف الطبيعية Natural Conditions فقد اخترع سانتشى ظروفاً جديدة، على أن يختبر نظريته تحت هذه الظروف بسرعة ودقة.

هذا ويتضمن البحث التجريبى عادة، تركيب واستخدام آلات وأدوات ميكانيكية كما يستخدم الكيميائيون وعلماء الفيزياء المحدثون أجهزة معقدة فى أغراضهم التجريبية. ولكن الأجهزة والأدوات ليست بذاتها العنصر الضرورى فى هذا النوع من البحوث، وذلك لأن العامل الهام الحقيقى هو ذكاء الباحث وفطنته... فالباحث لابد أن يكون قادراً على ابتكار وتدبير الظروف التى يمكن أن يتحكم فيها فى كل مرحلة من مراحل التجربة.... ويجب أن يكون الباحث متيقظاً بدرجة كافية لمتابعة

تطورات التجربة، وفهم ما يحدث خلال إجرائها... وإذا لم يكن الباحث على دراية بذلك، فإن ملاحظاته ستكون غير موثوق فيها.

وهناك بعض التجارب التى يمكن إجراؤها دون استخدام أى أجهزة خاصة... وذلك مثل التجارب التى تتم لاختبار طرق جديدة للتدريس بالمدارس. ولكن يجب أن يكون واضحاً انه لا بد فى هذه الأحوال أيضا من توفير ضوابط Controls وظروف معينة فى أى تجربة دقيقة.

جاليليو رائد المنهج التجريبي:

كثيراً ما يلقب جاليليو بأنه أب الطريقة التجريبية.. وقد سبق لنا أن أشرنا فى الباب الأول إلى تجاربه على الأشياء ذات الأوزان المختلفة التى اسقطها من ارتفاع معين على الأرض... حيث يبدو أن المنطق يشير إلى أن الأشياء الثقيلة ستهبط إلى الأرض أسرع من الأشياء الخفيفة ولكن تجارب جاليليو (الملاحظة تحت ظروف يمكن التحكم فيها Controlled Conditions) أظهرت أن الأشياء التى تتكون من مادة واحدة تسقط على الأرض بمعدلات سرعة واحدة مهما اختلفت أحجام وأوزان هذه الأشياء.

الدراسات التجريبية على أصل الحياة:

لقد ثبت أن الملاحظات التى تمت تحت الظروف الطبيعية ـ لم تكن حاسمة بالنسبة للكائنات الحية... فهل تنشأ هذه دائما كنسل وذرية للوالدين الأحياء أم أن هذه الكائنات تنتج أحيانا بواسطة التولد الذاتى Spontaneous Generation. لقد استدعت هذه المشكلة إجراء التجارب التى يمكن التحكم فيها وذلك للاجابة على هذا السؤال بصورة قطعية...

لقد تناول لويس باستير Louis Pasteur عام ١٨٦٠ هذه المشكلة مستخدماً كلا من الطريقة التجريبية وغيرها من الطرق... وفحص بعناية «الفرض» الذى يقول بأن الجراثيم Germs تعيش فى الهواء، وأنها تنقل بواسطة تيارات الهواء من مكان إلى

آخر.... وإذا كانت هذه الرواية صحيحة فمعنى ذلك أن هذه الجراثيم سوف تترسب فى السوائل المعقمة والمحفوظة فى الأوعية المفتوحة.

ولاختبار هذا الفرض. فقد قام باستير بتوجيه تيار من الهواء تحت ضغط قوى من خلال مرشحات قطنية ثم وجه هذ التيار بعد ذلك من خلال مرشحات اسبستوس (وذلك لتجنب أى مواد غريبة فى القطن). وفى هاتين الحالتين ترسبت الجراثيم على المرشحات.. مما يؤكد بقوة وجود كائنات غير مرئية فى الهواء....

ثم قام باستير بعد ذلك باختبار عينات من الهواء قام بتجميعها من قطاعات مختلفة من فرنسا (من الشوارع، من الحقول، من المرتفعات الجبلية... ومن معمله نفسه)... وقد تبين له انه كلما كان الهواء صافيا وكلما كانت كمية الغبار الذى يحمله الهواء قليلة ـ كلما قلت الجراثيم الموجودة. وقد أظهر الدليل إذن أن هناك كائنات حية دقيقة فى الهواء محمولة بالغبار.

ولكن هل يمكن أن يثبت ذلك أن الهواء هو المصدر الوحيد للحيوانات أو الكائنات التى تتكاثر فى النقاعات والسوائل المعقمة؟ ولمتابعة هذا السؤال والوصول إلى نتيجة، قام باستير بابتكار تجربة أكثر إحكاما.

لقد قام بغلى السوائل حتى قضى على جميع آثار الحياة فيها.. وفى كل حالة من هذه الحالات فإن الكائنات التى تتكاثر كانت تعيد الظهور تدريجياً وذلك عندما تترك هذه السوائل فى الأوعية المفتوحة لعدة أيام...

وعندما كرر إجراء هذه العملية نفسها، ولكن بوضع السوائل فى دوارق Flasks بحيث تكون أعناق هذه الدوارق للأسفل لمنع الغبار من الترسب على سطح السوائل ـ فقد لوحظ عدم وجود وعدم تكاثر الجراثيم على السطح... ولم تظهر الكائنات إلا عندما كان يلتصق الغبار بالسوائل.

ومعنى ذلك أن باستير قد برهن على أن السوائل التى دخل إليها الغبار هى وحدها التى تحتوى على الكائنات التى تتكاثر... أما السوائل الأخرى من نفس النوع

والتي تم إجراء التجارب عليها بنفس الطريقة ـ باستثناء تعرضها للغبار ـ لم تحتوى على هذه الكائنات.... وعند ذلك فقد وضع باستير حدا لشبح التولد الذاتى...

وتعتبر تجارب باستير هذه مثالاً طيباً للتحليل العملى تحت ظروف محكومة Controlled Conditions. ولقد نجح باستير فى تخطيط تجاربه بعناية كافية لعزل وملاحظة كل عامل من العوامل التى يمكن أن تؤثر على النتائج، وكان هدفه كما قلنا هو تحديد السبب الحقيقى للظاهرة التى يقوم ببحثها.. وعند اكتشافه للأسباب، فإن الباحث يستطيع السيطرة على الأحداث أو التنبؤ الدقيق عنها...

ثالثاً ـ بعض قواعد تصميم التجارب:

قام جون ستيوارت ميل John Stuart Mill الفيلسوف الانجليزى الكبير بدراسة مشكلة الأسباب Causes التى يتناولها البحث التجريبى وتوصل «ميل» إلى خمس قواعد، يمكن أن تفيد كمرشد فى تصميم التجارب والبحث عن تلك الأسباب... ولكن ميل Mill حذر من أن هذه القواعد ليست جامدة، كما أنها لا تصلح فى جميع الحالات [1]...

وفيما يلى هذه الطرق والقواعد:

١ ـ طريقة الاتفاق: Method of Agreement

وتشير هذه الطريقة إلى أنه إذا كانت الظروف المؤدية إلى حدث معين، تتحد جميعا فى عامل واحد مشترك، فإن هذا العامل يحتمل أن يكون هو السبب. وبمعنى آخر يمكن أن نعبر عن هذه الفكرة بالطريقة السلبية، فنقول بأنه لا يمكن أن يكون شئ معين هو سبب ظاهرة معينة، إذا كانت هذه الظاهرة تحدث بدونه... وقد استخدم هذا المبدأ (طريقة الاتفاق) بنجاح فى دراسات عديدة....

ويمكن أن نناقش فيما يلى بعض تطبيقات هذا المبدأ... فمنذ سنوات عديدة هاجم مرض مجهول منطقة معينة فى أمريكا، وكانت ضحاياه الأولى من النساء،

(١) Mill, John Stuart. A System of Logic. New York, Harper and Row Publishes, 1873.

وقد قام الدراسون بالبحث عن سبب هذا المرض بتطبيق مبدأ ميل الأول وهو «طريقة الاتفاق» بأن بحثوا عن الشيء المشترك الذى تتحد فيه جميع هؤلاء النساء الضحايا... لقد كان هذا الشيء المشترك هو شراؤهن جميعا لنوع معين من «الفرو الرخيص» وهنا ارتاب الباحثون فى أن يكون هذا «الفرو الرخيص» هو السبب... وبفحصه فحصاً دقيقاً تبين أن هذا الفرو حامل للمرض Carrier Disease... ومن الواضح أن وجود جراثيم المرض على هذا الفرو هو السبب وليس الفرو نفسه، ولكن تطبيق طريقة ميل عن الاتفاق هى التى أرشدت الباحثين لهذا المفتاح الحيوى فى حل المشكلة.

ولسوء الحظ، فان العوامل المختلفة فى أى مجموعة من الظروف، ليست دائما واضحة وضوحا قاطعا كما هو الحال فى المثال السابق... فربما يكون موت عدد معين من الناس (يشكون جميعا من مرض فى معدتهم) بسبب المياه التى يشربونها من بئر واحدة. ولكن هذه المياه يمكن بعد الفحص أن تكون نقية خالية من الجراثيم، ومصدر المرض هو شيء آخر مختلف تماما.إن الصعوبة التى تواجه الباحث عند استخدامه لهذا المبدأ تقع فى تمييزه بين العوامل ذات الدلالة وذات العلاقة بالمشكلة، والعوامل التى ليس لها أى دلالة أو علاقة بالمشكلة... ومعنى ذلك أنه لابد لنا من أن نتحرى عن السبب الحقيقى وأن نفصله عن السبب الظاهر.

٢ ـ طريقة الاختلاف: Method of Difference

لقد أشار ميل Mill فى هذه الطريقة إلى أنه إذا كانت هناك مجموعتان أو أكثر من الظروف المتشابهة فى كل شيء ما عدا عامل واحد فقط وإذا حدثت نتيجة معينة عند وجود هذا العامل فقط ـ فإن هذا العامل موضع البحث يحتمل أن يكون سبب هذه النتيجة...

ويمكن التعبير عن ذلك بطريقة سلبية... فنقول بأنه لا يمكن أن يكون شيء معين هو سبب ظاهرة معينة، إذا كانت هذه الظاهرة لا تحدث فى وجوده. لنفترض أن هناك مجموعة من الفئران البيضاء التى تعيش على غذاء معين لا يحتوى على فيتامين جـ.. وأن هناك مجموعة أخرى من الفئران البيضاء التى تعيش على نفس

الغذاء ولكن مضافاً إليه فيتامين جـ بوفرة.. ثم تبين أن المجموعة الثانية من الفئران قد نمت بطريقة أسرع وتبدو أكثر صحة من المجموعة الأولى، فإن النتيجة يمكن أن تشير إلى أن الفيتامين هو المسئول عن ذلك..

ولكن هذه النتيجة لا يمكن أن تكون قاطعة وحاسمة إلا إذا تأكدت فى حالات كثيرة جدا... وذلك لأنه فى الحالة التى أمامنا ربما يكون عامل الوراثة فى المجموعتين أو حالة معينة فى الوسط المحيط (غير الفيتامين) هى التى أدت إلى هذه النتيجة..

إن قاعدة المتغير الواحد التى وضعها ميل Mill كانت ذات أهمية لا بأس بها فى التجارب الأولى... ففى عام ١٦٦٢ استخدم روبرت بويل Robert Boyle ـ وهو عالم ايرلندى فى الفيزياء ـ هذه الطريقة للوصول إلى مبدأ بنى عليه قانون الغازات وهو: عندما تكون درجة الحرارة ثابتة فإن حجم الغاز المثالى يتناسب تناسباً عكسياً مع الضغط... وبمعنى آخر عندما يزيد الضغط فإن الحجم يقل. وعندما يقل الضغط فإن الحجم يزيد...

$$\frac{ح_1}{ح_2} = \frac{ض_2}{ض_1}$$ (فى قانون بويل فإن الضغط هو المتغير الواحد)

وبعد أقل من قرن من الزمان اكتشف العالم الفرنسى جاك شارل Charles Jacques A.C قاعدة مكملة للقاعة السابقة وتعرف بقانون شارل Charles' Law فقد لاحظ أنه عندما يكون الضغط ثابتاً، فإن حجم الغاز يتناسب تناسباً طردياً مع درجة الحرارة. أى أنه عند رفع درجة الحرارة فإن الحجم يزيد، وعند خفض درجة الحرارة فإن الحجم يقل.

$$\frac{ح_1}{ح_2} = \frac{ر_1}{ر_2}$$ (فى قانون شارل حيث تعتبر الحرارة (ر) هى المتغير الواحد).

وعلى الرغم من أن فكرة المتغير الواحد قد أثبتت نجاحها فى بعض مجالات العلوم الطبيعية... إلا أنها لم تحرز نفس النجاح فى العلوم السلوكية... فعلى الرغم من

بساطتها ومنطقيتها الظاهرة، إلا أنها لم تزودنا بطريقة مرضية لدراسة المشاكل المعقدة. ذلك لأنها افترضت علاقة صناعية ومحكمة بين الأسباب الفردية والنتائج... ومن النادر أن تكون الأحداث الانسانية نتيجة عوامل مفردة، وإنما تكون هذه الأحداث عادة نتيجة تفاعل متغيرات عديدة.... ومحاولة تحديد جميع هذه المتغيرات، حتى يمكن عزل واحد منها وملاحظته، قد ثبت أنه أمر مستحيل [1].

ومع ذلك فقد زودتنا تجارب فيشر[2] R.A Fisher والتى أجراها فى المجالات الزراعية أول الأمر ـ بأساليب أكثر فعالية للقيام بالتجارب الواقعية فى مجال العلوم السلوكية. وكانت فكرته الخاصة هى تحقيق التساوى فى الظروف (قبل إجراء التجربة) وذلك بالاختيار العشوائى للأفراد وبالتعيين العشوائى لأساليب المعالجة....

وأفكاره كذلك بالنسبة لتحليل التباين أو الاختلاف وتحليل التغير الحادث فى نفس الوقت Variance and Covariance، كانت هذه الأفكار هى التى جعلت من الممكن دراسة التفاعلات المعقدة عن طريق تحليل المتغيرات المتعددة... والتى يمكن أن يلاحظ فيها تأثير أكثر من متغير مستقل واحد على أكثر من متغير آخر متعلق به أو متوقف عليه.

وعلى كل حال... فيمكننا أن نقول بأن الظروف المتشابهة بالنسبة لجميع العوامل، فيما عدا عامل أو متغير واحد... هذه الظروف نادرة من غير شك بالنسبة للعلوم السلوكية... وهذا ما استدعى من القائمين بالبحوث محاولة كفالة الضمانات المطلوبة حتى تؤدى هذه الطريقة إلى نتائج موثوق بها وإلى تصميم التجارب بنجاح.

٣ ـ الطريقة المشتركة: Joint Method

لعل معظم النتائج الموثوق بها فى البحوث التجريبية تتحقق فى الدراسات التى نستخدم فيها كلاً من طريقة الاتفاق وطريقة الاختلاف.

(١) Best, John W. Research in Education, p. 141 - 2.

(٢) Fisher, Ronald A. The Design of Experiments. New York, Hafiner Publishing Co.. 1960.

ومن هنا أطلق ميل Mill على هذه القاعدة الثالثة اسم الطريقة المشتركة... وبناء على هذا المبدأ، فإذا أمكن للباحث أن يستوفى شروط كل من طريقة الاتفاق وطريقة الاختلاف... فإن تحديد السبب يجب أن يكون نهائياً وقاطعا Conclusive.

واستخدام الطريقة المشتركة يعنى أننا يجب أن نطبق أولاً طريقة الاتفاق لاختبار الفرض (أى أن نحاول العثور على العامل الواحد المشترك فى جميع الحالات التى تحدث فيها الظاهرة). ثم نطبق طريقة الاختلاف (أى أن نقرر أن الظاهرة لا تحدث أبداً عند عدم وجود هذا العامل المعين)..... وإذا أدت كلا الطريقتين إلى نفس النتيجة فإن الباحث يكون واثقا إلى حد كبير أنه قد وجد السبب... وينبغى أن نشير فى هذا المقام إلى أن العالم باستير قد استخدم الطريقة المشتركة فى تجاربه على الأصول البكتويولوجية (Infusoria).

٤ ـ طريقة العوامل المتبقية: Method of Residues

لقد تبين لميل Mill أن هناك بعض مشاكل البحث التى لا يمكن حلها بالطرق الثلاث السابقة، ومن ثم فقد قدم طريقة العوامل المتبقية للعثور على الأسباب عن طريق عملية الاستبعاد Process of Elimination. وهذه الطريقة تعتمد على أنه: عندما تكون العوامل المحددة التى تسبب بعض أجزاء من الظاهرة معروفة، فإن الأجزاء المتبقية من الظاهرة لا بد وأن تكون ناتجة عن العامل، أو العوامل المتبقية. وهذه الطريقة إذن يمكن أن يطلق عليها اسم طريقة المرجع الأخير Last Resort.

٥ ـ طريقة التلازم فى التغيرات: Method of Concomitant Variations

إذا لم يكن بالإمكان استخدام الطرق التجريبية الأربع السابقة، فإن ميل Mill قدم للباحثين الطريقة الخامسة هذه التى تدعو فى الواقع إلى أنه إذا كان هناك شيئان متغيران أو يتبدلان معاً بصفة منتظمة، فإن هذه التغيرات التى تحدث فى واحد منهما تنتج عن التغيرات التى تحدث فى الآخر، أو أن الشيئين يتأثران فى ذات الوقت بسبب واحد مشترك.

ولكي يوضح ميل Mill فكرته أو مبدأه هذا، فقد أشار إلى تأثير جاذبية القمر على حركة المد والجزر التي تحدث على الأرض... ونظراً لأننا لا نستطيع أن نتناول القمر تجريبياً... وذلك بالتخلص منه ـ من على مسرح التجربة ـ لنعرف ماذا سيحدث في حالة عدم وجوده، فإن طريقة الاتفاق وطريقة الفرق سوف لا تكونان ذاتي قيمة لنا في هذه الحالة... ولكن استخدامنا لطريقة التغيرات الملازمة.. ستؤدي بنا إلى مقارنة التغيرات في حركة المد والجزر مع التغيرات في وضع أو مكان القمر بالنسبة للأرض. ونحن نلاحظ أن كل التغيرات التي تحدث في مكان القمر يتبعها تغيرات مناظرة في زمان ومكان حركة المد والجزر العالي والمنخفض في جميع أنحاء العالم... حيث تحدث دائما حركة المد العالي على جانب الأرض الأقرب إلى القمر كما يحدث هذا المد العالي على جانب الأرض العكسي للجانب الأول تماما...

وبناء على هذه الملاحظات فنحن نصل إلى النتيجة التالية:

(أ) أن حركة المد والجزر تؤثر على حركة القمر أو؛

(ب) أن حركة القمر ـ أو تغير مكانه الذي يقوم فيه بعملية الجذب ـ هو الذي يؤدي إلى رفع المد، أو الاحتمال الثالث؛

(جـ) أن التغيرات في مكان القمر وحركة المد والجزر تحدث بسبب عامل مشارك ينسحب على الاثنين.

ومن الواضح أن مناقشة هذه الاحتمالات ستؤدي بنا إلى الثقة في أن التغيرات التي تحدث في مكان القمر تؤدي فعلا إلى تغيرات في حركة المد والجزر، وبالتالي فإن تأثير القمر هو الذي يتسبب في ذلك بالدرجة الأولى [1].

(١) Mill, John Stuart. A System of Logic. Book III, (Chapter 8) New York, Harper and Bros., 1873, p. 232.

هل تكون هذه الدراسة «تجريبية» في واقع الأمر؟.. لا.. لأننا لانستطيع أن نتحكم في هذه الظروف ولكننا نلاحظها فقط... وبالتالي فإن النتائج التي نصل إليها نستمدها كلية من مسح الحقائق المتعلقة بموضوعنا..

رابعاً ـ التجربة فى المعمل والتجارب مع الناس:

(أ) التجربة فى المعمل:

لقد اكتشف العلماء منذ زمن بعيد أن المعمل يزودهم بالجو المثالى للبحث التجريبى. ولا يعود ذلك إلى أن المعمل مكان معزول عن التأثيرات الخارجية فحسب، ولكن ذلك يعود أيضا إلى أن المعمل مكان مصمم ومجهز لهذا النوع من البحوث... ومع ذلك فينبغى أن نؤكد بأن وجود الأجهزة المعقدة الباهظة التكاليف لا يؤدى بالضرورة إلى بحث ناجح... ذلك لأن نجاح البحث يعتمد إلى حد كبير على الباحث العلمى. ونحن نذكر أن طلاب البحوث فى إحدى كليات الفيزياء بالولايات المتحدة، قد استطاعوا باستخدام أجهزة غير معقدة أن يطلقوا الطاقة الذرية من عقالها... فالعقل الانسانى هو العامل الأساسى لجميع أنواع البحوث التجريبية المرموقة.

ولا يعنى ذلك أن أحداً ينكر أهمية تجهيز المعمل بأجهزة عالية الكفاءة، قد لا تتم التجارب بدونها... وعلى سبيل المثال فقد حاول بعض الباحثين اكتشاف طرق أفضل لتعليم الطلاب القراءة... فصمموا كاميرا للصور المتحركة، يمكنها أن تلتقط صوراً لشعاع من الضوء، مركز على عين المفحوص أثناء قيامه بالقراءة. وقد سجلت حركة عينيه نفسها على فيلم، حيث يمكن دراسة هذه الحركات ومقارنة الحركات المميزة للقراء الممتازين مع حركات عيون القراء الآخرين. ومن الواضح أن إجراء مثل هذه التجارب يصبح فى غاية الصعوبة بدون هذه الأدوات... كما أن هناك علماء باحثين، قاموا بتجارب غاية فى الدقة والكفاءة، مستعينين بأجهزة وأساليب بسيطة التركيب والتصميم..

(ب) التجارب مع الناس:

إن إخضاع الناس للتجارب المعملية أمر عسير... ولعله أمر غير مرغوب فيه أيضا، ومن ثم كان من اللازم تدبير أساليب غير معملية لخدمة أغراض التجريب مع الناس.

ومن أمثلة هذه التجارب التى أُجريت على جماهير غفيرة من الناس، تلك التجارب التى أُجريت لغرض التعرف على أثر مركبات الفلورين ـ فى منع تسوس الأسنان ـ عند إضافتها لمياه الشرب. وقد أجريت التجربة على مجتمعين متساويين فى الحجم تقريبا... وتم تزويدهما بنفس نوع مياه الشرب، ثم أضيف الفلورين إلى مياه الشرب الخاصة بأحد المجتمعين، ولم يضف الفلورين إلى مياه الشرب الخاصة بالمجتمع الآخر...

وقد قام الباحثون فى هذه التجربة بحفظ سجلات دقيقة لمدة ست سنوات لبيان كمية التسوس فى أسنان أطفال المدارس فى كلا المجتمعين.. وإذا كان هناك نقص ملحوظ فى كمية تسوس الأسنان بين أطفال المجتمع الذى استخدم الفلورين فى مياه الشرب، ولم يكن هناك نقص فى التسوس فى المجتمع الآخر (بشرط عدم وجود عوامل أخرى تؤثر على التجربة)... فيمكن أن نستنتج بأن إضافة الفلورين قد ساعدت على حماية أسنان الأطفال...

وقد حاول العلماء إجراء التجارب على الحيوانات نظرا لصعوبة إجرائها على الناس... ومن أمثلة هذه المحاولات ما قام به أدوارد ثورندايك Thorndike من تجارب لاكتشاف كيفية «تعلم» الناس ووضع ما يمكن أن يسمى «قوانين التعلم Laws of Learning» بنا على ملاحظاته التى جمعها فى تجاربه المعملية على القطران [1].... كما قام بافلوف Pavlov فى الاتحاد السوفيتى بدراسة فسيولوجية الهضم فى الكلاب... وطبق النتائج التى انتهى إليها على الإنسان. ولعلنا نقترب الآن من مرحلة تقنين وضبط طرق التجريب على الجماعات المختلفة... والتى تمدنا بطريقة للعمل تجريبياً على الناس خارج المعمل... ذلك لأن نتائج التجارب التى تتناول حيوانات المختبر، يمكن ألا تكون صحيحة إذا طبقت على الناس... أما طرق الجماعات فهى تزودنا بوسائل دراسة الناس بطريقة مباشرة... وهناك أشكال ثلاثة لطرق التجريب على الجماعات وهى:

(١) Thorndike, Edward L. The Fundamentals of Learning, New York, Teachers College, Columia University, 1932.

١ ـ طريقة الجماعة الواحدة.

٢ ـ طريقة الجماعة الموازية أو الجماعة المتكافئة.

٣ ـ طريقة الجماعة المناوبة.

١ ـ طريقة الجماعة الواحدة: The One - Group Method .

وفى هذه التجربة التى تخص جماعة واحدة.. فإن الباحث يضيف عاملا واحداً معروفا ـ أو يطرح هذا العامل ـ من الجماعة ـ (وأحيانا من الفرد)، ثم يقوم بقياس التغيير الناتج إذا كان هناك تغيير.

وعلى سبيل المثال يمكن أن تُمتحن مجموعة من الطلاب امتحاناً مقنناً فى القراءة... وبعد وضع الدرجات الخاصة بهذا الامتحان، تعطى هذه المجموعات دروساً خاصة فى كيفية القراءة الصحيحة للمواد المختلفة وذلك خلال فترة خمسة أسابيع مثلا... ثم يطلب إلى هؤلاء الطلاب أنفسهم تقديم نفس الامتحان السابق مرة ثانية (أو امتحان مشابه).. ثم تقارَن علامات الطلاب فى هذا الامتحان الثانى مع علاماتهم فى الامتحان الأول... وإذا كان هناك تحسن فى القدرة القرائية لجميع أو معظم الطلاب... فيمكن أن نستنتج أن دروس تعليم القراءة قد كانت ذات قيمة وأنها على وجه التحديد تشكل العامل الأساسى المسئول عن التغيير فى المقدرة القرائية (وذلك على افتراض أنه ليس هناك أى تغيير هام قد حدث فى المادة القرائية أو فى طرق التعليم ذاتها من مصدر آخر خلال نفس الفترة).

وعلى الرغم من أهمية طريقة الجماعة الواحدة فى إجراء البحث التجريبى، إلا أن هذه الطريقة معرضة لأخطاء خطيرة، واذا رجعنا مثلا إلى التجربة السابق الإشارة إليها عن تحسين القراءة، فيجب أن نحرص غاية الحرص على ألا تكون هناك عوامل أخرى قد أثرت على نتيجة التجربة (مثل حماسة المعلم أو رغبته فى النتائج الطيبة أو الساعات الإضافية التى يتلقاها الطلاب فى التجربة أو المجهود غير العادى الذى قد

يبذله الطلاب... الخ).. ويجب على الباحث على كل حال ألا يخدع نفسه بأن طريقة التعليم هى وحدها السبب فى التغيير.

إن الطريقة التجريبية الخاصة بالجماعة الواحدة يمكن أن تؤدى إلى نتائج مرضية للغاية إذ أمكن التحكم فى جميع العوامل التى يمكن أن تؤثر على التجربة... ولما كان ذلك أمراً قد يكون عسيراً فى بعض الأحيان، لذا فقد فضل الباحثون كلا من طريقة الجماعة الموازية وطريقة الجماعة المناوبة... وذلك لضمان أكبر قدر من دقة الملاحظة.

٢ ـ طريقة الجماعة الموازية أو المتكافئة : Parallel or Equivalent Group

وتتم فى هذه الطريقة دراسة جماعتين فى نفس الوقت... وهاتان الجماعتان لابد وأن تكونا متشابهيتن مع بعضهما على قدر الإمكان أى جماعتين متوازيتين. ويجب أن تكون الجماعتان متشابهتين بالنسبة للصفات المختلفة مستوى الأعمار وتوزيع الجنسين فيهما ومستوى الذكاء والخلفية العائلية والخبرات السابقة بالنسبة للمواد أو الموضوعات التى تتناولها التجربة... الخ...

ثم يقوم الباحث بعد ذلك باستخدام العامل التجريبى على جماعة واحدة فقط من الجماعتين (وهذه تسمى الجماعة التجريبية Experimental Group) وهذا العامل التجريبى لا يستخدم بالنسبة للجماعة الأخرى (وهى الجماعة الضابطة Control Group) ثم تقارن المجموعتان للتعرف على أى تغيير واضح يكون قد حدث فى الجماعة التجريبية.

والمشكلة الأساسية بالنسبة لهذه الطريقة هى أنه ليس هناك جماعتان من الناس متشابهتان أو متوازيان ومتكافئتان تماما. والفروق البسيطة والتى تبدو لا أهمية لها بين الأفراد فى الجماعتين... يمكن أن يكون لها أثر تراكمى Cumulative Effect كما يمكن أن تؤدى إلى فروق هامة بين الجماعتين. وعلى ذلك فلا بد للباحث بعد محاولته تكوين مجموعيتن متشابهتين على قدر المستطاع أن يقارب الجماعتين فى

مجموعهما (أى بحساب المتوسط average فى كل منهما) .. وعلى كل حال فإن تأمين جماعتين متكافئتين ومتشابهتين لا يعتبر عملية معقدة فحسب، ولكن ذلك يعتبر صعوبة رئيسية فى هذه الطريقة كذلك... إذ لا بد من أن تتناول التجربة عددا كبيرا من الأفراد حتى تكون البيانات والنتائج موثوقا بها. وإذا كانت التجربة العملية تستلزم بالضرورة حوالى ستة أفراد مثلا للسيطرة على مختلف جوانب التجربة. فإن النتائج التى يحصل عليها البحث بهذه الجماعات الصغيرة لا تصلح أن تكون موضع ثقة ينطلق منها التعميم على المجتمع كله إلا إذا تكررت التجربة نفسها مرات عديدة مع جماعات مختلفة... فما قد يثبت تجريبيا بالنسبة لجماعة صغيرة من الناس قد لا ينسحب على السكان جميعا.

٣ ـ طريقة الجماعة المناوبة : The Rotation - Group Method

وتحاول هذه الطريقة تجنب كثير من المخاطر التى تتعرض لها كل من: طريقة الجماعة الواحدة وإجراءات الجماعة الموازية أوالمتكافئة... ويمكن استخدام جماعتين أو أكثر فى تجربة الجماعة المناوبة، على أن تكون الجماعات متكافئة على قدر المستطاع... ثم يطبق العالم التجريبى على كل جماعة واحدة بعد الأخرى... ونتيجة لذلك فإن كل واحدة من هذه الجماعات الداخلة فى البحث، ستصبح مناوبة كجماعة تجريبية وكجماعة ضابطة أثناء المراحل المختلفة للدراسة.

ويستطيع الباحث أن يقوم بتجاربه مع جماعات عديدة وليس مع جماعتين فقط باستخدامه لطريقة التناوب المنظم فى هذه الطريقة. كما أن هذه الجماعات لا تتطلب بالضرورة أن تكون متوازية متكافئة كما هو الحال فى طريقة الجماعة المتوازية... فضلا عن إمكانية استخدام طريقة الجماعة المناوبة على جماعة واحدة من الأفراد... وذلك بإدخال العامل التجريبى لعدد مختلف من الأفراد داخل الجماعة الكلية فى أوقات مختلفة... وهناك طرق عديدة لتحقيق ذلك... ويقوم بها الباحث بنجاح إذا ما حافظ على الظروف والشروط التى ينبغى توافرها فى التجربة الناجحة...

خامساً ـ الصعوبات التي يجب ان يتجنبها الباحث:

يكتنف المنهج التجريبى صعوبات عديدة، شأنها فى ذلك شأن طرق البحث الأخرى... وذلك بالنسبة لاختبار الفرض عن طريق التجريب ولعل أكثر هذه الأخطاء شيوعا، هو ميل الباحث الطبيعى للاعتماد على النتائج التى يحصل عليها فى تجربة واحدة.... وعلى كل حال فإذا كانت التجربة قد أجريت بطريقة سليمة فان النتائج التى يحصل عليها البحث ستكون هى نفسها النتائج التى يتم التوصل إليها عند إعادة التجربة، هذا ويوصى البعض بتكرار التجربة ولو مرة واحدة على الأقل، إذا أردنا أن نطمئن إلى النتائج التى توصلنا إليها وإن كان من المفضل تكرار التجربة مرات عديدة...

وهناك مصدر آخر للخطأ وهو عدم توفر الأدوات والأجهزة الدقيقة، ذلك لأن استخدام الأجهزة غير الدقيقة فى التجربة كثيرا ما يؤدى إلى بيانات ونتائج غير دقيقة، وبالتالى فشل التجربة والدراسة نهائيا.

هذا ويكتشف الباحث بعد وقت قصير من ممارسته للبحث، أهمية استخدام المواد النقية فى التجارب الكيميائية مثلا وضرورة القياسات والأوزان الدقيقة أيضا على أن يأخذ فى اعتباره عند تقويم النتائج فى النهاية أية تحفظات بسبب الأخطاء المحتملة...

أما بالنسبة للتجارب التى تتناول الناس، فهناك صعوبة من غير شك فى تحديد جميع المتغيرات أو العوامل التى تؤثر على نتائج التجربة. أن عزل جميع العوامل التى يمكن أن يكون لها صلة بالتغيرات التى تحدث خلال التجربة أو التحكم فيها، يعتبر أمراً مستحيلا....

فإذا كانت هناك تجربة تتصل بأحد الأفراد، وتتطلب هذه التجربة شهراً من الزمان... فإن هذا الشخص نفسه يكون قد تغير فى بعض الجوانب خلال هذه المدة، وبالتالى لم يعد هذا الشخص هو نفسه تماما عندما بدأت التجربة... وقد تكون التغيرات طفيفة ولكنها موجودة على كل حال.

هذا ومن العسير استبقاء الأفراد عمليا تحت المراقبة والإشراف خلال المدة التى تتطلبها التجربة... فاذا استلزمت التجربة مثلا استبقاء أحد الأشخاص متيقظا بصفة

مستمرة لمدة ثمان وأربعين ساعة للتعرف على التغيرات الفسيولوجية التى قد تحدث له... فهناك احتمال غفوة هذا الشخص ولو فترات قصيرة من شأنها أن تفشل التجربة ذاتها وتجعل نتائجها مشكوكا فيها...

وعلى كل حال، فيجب على الباحث أن يضع نصب عينيه ضرورة التحكم فى المتغيرات التى لها علاقة وثيقة بالتجربة التى يقوم بها... على أن يترك دون ضبط أو تحكم أو إشراف المتغيرات الأخرى (وهناك العديد منها) التى يبدو أنها ذات تأثير ضعيف على النتائج...

وهناك دائما خطأ التحيز Bias سواء فى القائم أو فى الأشخاص الذين هم موضع التجربة ذاتها... ذلك لأن هؤلاء الأشخاص سينتبهون إلى دورهم فى التجربة وبالتالى سيحاولون بذل جهد لنجاح التجربة... أى أن التجربة وهى صناعية بالضرورة ـ سوف لا تكون قريبة من الظروف الطبيعية ولا تنسحب عليها. وعلى سبيل المثال، فمن المعروف أنه عند محاولة اختبار دواء جديد... فإن الباحث يعطى لبعض الأفراد الذين يشتركون فى التجربة أقراصا من السكر أو حقنا وهمية.... ويعتقد بعدها هؤلاء الأفراد أنهم قد تحسنوا كثيرا... وقد يكون ذلك حقيقيا أيضا... ذلك لأن قوة الايحاء لدى الكثير من الناس عظيمة كذلك..

هذا ويعانى التجريب مع الأشخاص أيضا من آثار الممارسة غير الواعية unconscious Practice. ومن العسير اكتشاف هذه المخاطر إذ كثيراً ما يتعلم المفحوص مهارات خاصة (وهذه ما يطلق عليها فى البحث مصطلح أثر الممارسة) نتيجة تعرضه للعامل التجريبى مدة طويلة، وهذا فى حد ذاته قد يؤدى بالفحوص إلى إحراز علامات عالية بعد الممارسة للعامل التجريبى هذا. فالعامل التجريبى ذاته قد يكون له أثر فى تغيير سلوك المفحوص بناء على الممارسة ويجب على الباحث ملاحظة هذه الأخطار واتخاذ أسباب تلاشيها أو حسابها فى نتائجه...

وأخيراً فهناك مخاطر استخدام عدد قليل من المفحوصين فى التجربة التى تتناول جماعة معينة... وعلى كل حال فيجب مراعاة المبادئ العلمية الخاصة باختيار العينة الاختيار الصحيح.

وهناك واحدة من الفكاهات التى تتداول بالنسبة لاختبار عينة قليلة العدد... أن أحد طلاب البحث المبتدئين أراد أن يختبر أثر طعام معين على الفئران البيضاء، وعند نهاية دراسته لخص اكتشافاته ونتائجه كما يلى: لقد زاد وزن ثلث الفئران المفحوصة التى تناولت هذا الطعام، ومات ثلث هؤلاء الفئران أما الفأر الثالث فقد فر واختفى ولم يستطع الباحث أن يعثر عليه.

ملخص:

تعتبر الطريقة التجريبية فى البحث، واحدة من الطرق التى يتم فيها التحكم فى الظروف والعوامل اللازمة لاختبار الفرض. ويتطلب ذلك عادة معملاً أو أجهزة خاصة، وإن كان من الممكن إجراء تجارب دون الاستعانة بهذه الوسائل الصناعية.

لقد قام جون ستيوارت ميل بتحليل المبادئ الفلسفية الهامة التى يتطلبها الأسلوب التجريبى وحدد هذه المبادئ فى خمسة هى:

(١) طريقة الاتفاق.

(٢) طريقة الاختلاف.

(٣) الطريقة المشتركة.

(٤) طريقة العوامل المتبقية.

(٥) طريقة التغيرات المتلازمة.....

وهذه القواعد العامة التى وضعها ميل Mill انما تتناول الأساليب التجريبية فى تجريدها... وتستخدم هذه القواعد الآن كمرشدة للباحث فى تخطيطه للتجارب...

ولما كان من غير الممكن دائما دراسة الناس داخل المختبر... فقد وجدت طرق أخرى لملاحظة الناس تجريبيا فى جماعات خارج المختبر... وهذه هى طريقة الجماعة الواحدة وطريقة الجماعة الموازية وطريقة الجماعة المناوبة. وعلى الرغم من أن

التجارب يمكن أن تتم على أفراد معدودين، إلا أن الحاجة إلى عينة ممثلة للمجتمع ومناسبة الحجم.... تعتبر أمراً ضرورياً للوصول إلى نتائج صحيحة....

وإلى جانب المخاطر العادية «بالخطأ فى البحث» هناك مخاطر محددة تتعلق بالدراسات التجريبية... فكل تجربة لا بد من تكرارها مرات عديدة قبل قبول النتائج التى تشير إليها... كما يجب أن تكون الأجهزة والمواد المستخدمة فى التجربة فى حالة طيبة ودقيقة... كما يجب العناية الكاملة بالبحث عن جميع العوامل التى قد تؤثر على نتائج الدراسة وذلك بإخضاع هذه العوامل للتحكم والاشراف والرقابة المستمرة. وهناك مخاطر خطأ التحيز من جانب كل من الباحث والمفحوص نفسه وذلك عندما يتكون لدى المفحوص ما يسمى «بأثر الممارسة».

وعلى ذلك فيمكننا أن نقول بأنه إذا كانت التجربة هى أكثر طرق البحث قرباً إلى العلم، فإنها لا تخلو من المخاطر....

وفى النهاية ينبغى لنا أن نؤكد بأن ذكاء الباحث وإخلاصه فى عمله مع اتجاهاته الموضوعية وحرصه ودقته وصبره.... هذه الصفات النوعية لدى الباحث ـ وليست الآلات والتجهيزات المعقدة ـ هى التى تؤدى إلى نتائج ناجحة فى الدراسات التجريبية.

الفصل السادس عشر

منهج المسح

اولاً ـ نطاق منهج المسح واهميته:

يعتبر المسح واحداً من المناهج الأساسية فى البحوث الوصفية، حيث يهتم بدراسة الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها فى مجتمع معين... بقصد تجميع الحقائق واستخلاص النتائج اللازمة لحل مشاكل هذا المجتمع...

هذا وتعتمد الطريقة المسحية على تجميع البيانات والحقائق الجارية، عن موقف معين، وذلك من عدد كبير نسبيا من الحالات فى وقت معين ايضا... وهذه الطريقة لا تهتم بصفات الأفراد كأفراد.. ولكنها تهتم بالاحصائيات العامة التى تنتج عندما تستخلص البيانات من عدد من الحالات الفردية.. فهذه الطريقة بالضرورة هى دراسات مستعرضة Cross - Sectional.

وعند تحليل الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فعلى الباحث أولاً أن يحصل على الحقائق حول الموقف ـ أو صورة عن الظروف السائدة. وهذه الحقائق والبيانات يتم تجميعها بمسح السكان جميعهم، أو يتم ذلك عادة بمسح عينة من المجتمع مختارة اختيارا دقيقا لتمثيل هذا المجتمع.

ويجب أن نشير إلى أن المسح ليس قاصراً على مجرد الوصول إلى الحقائق والحصول عليها Fact - Finding... ولكن المسح يمكن أن يؤدى إلى صياغة مبادئ هامة فى المعرفة... كما يمكن أن يؤدى إلى حل للمشاكل العلمية..

وعلى ذلك فالمسح طريقة ومنهج عام من مناهج البحث. ولا ينبغى أن يختلط المسح مع العمل الروتينى، الذى يتم فيه تجميع وتبويب الأرقام... ذلك لأن المسح يتضمن بالضرورة مشكلة واضحة محددة، وأهدافها ثابتة مقررة... كما يتطلب المسح التخطيط الماهر وتحليل وتفسير البيانات المجموعة بعناية بالغة بالإضافة إلى تقديم النتائج بمنطقية وحذق...

هذا ويساعد المسح كذلك فى اكتشاف علاقات معينة بين مختلف الظواهر ، التى قد لا يستطيع الباحث الوصول إليها بدون مسح... ويمكن أن يعتبر المسح الذى قامت به جمعية السرطان الأمريكية لاكتشاف العلاقة بين التدخين وسرطان الرئة واحداً من الأمثلة التى يؤدى فيها المسح إلى اكتشاف هذه العلاقة.

ثانياً ـ بعض انواع المسح:

هناك أنواع مختلفة من المسح [١]: كالمسح الاجتماعى والمسح التعليمى ومسح الرأى العام ومسح السوق Market Survey.. ويمكن أن نشير إلى هذه الأنواع بشئ من الايجاز ثم نتناول المسح الاجتماعى بالتفصيل على يد رواده الأوائل، واستخدامات المسح كمنهج يستعين به الباحث فى التعميم، وننهى هذا الفصل بدراسة المسح كمنهج لجعل السياسة علما.

١ ـ المسح الاجتماعى:

ومجالات هذا النوع من المسح كثيرة منها المسح الذى تم فى الثلاثينيات عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية للزنوج فى أمريكا [٢].. ومنها دراسة الفريد كينزى فى جامعة انديانا، عن السلوك الجنسى للذكور [٣] والتى اعتمد فيها على المعلومات

(١) Best, John W., op. cit., pp. 120 - 126.

(٢) Myrdal, Gunner. An American Dilemma; The Negro Problem and Modern Democracy, New York, Harper and Row, Publishers, 1944.

(٣) Kinsey, Alfred C. et. al, **The Sexual Behaviour of the Human** ; Philadelpia, W.B. Sanunsers Co, 1980.

والبيانات التى جمعها من ١٢,٠٠٠ حالة... ودراسته عن السلوك الجنسى للإناث [١]، والتى نشرها بعد ذلك بخمسة أعوام.

وعلى الرغم من أن هذه الدراسات قد أثارت كثيرا من الجدل إلا أنها قدمت للباحثين منهجاً علمياً لدراسة إحدى المشاكل الاجتماعية الهامة... وكان لها تأثير ملحوظ على المشرعين ورجال القانون والاخصائيين الاجتماعيين والمعلمين وغيرهم.

وهناك دراسات أخرى عن عادات المشاهدين الأطفال للتلفزيون وهذه الدراسة هى التى قام بها بول ويتى [٢] Paul Witty وقد قام هذا الباحث بنشر تقارير سنوية عن دراسته تلك، وذلك منذ عام ١٩٥٠ . وقد أشار ويتى فى هذه التقارير إلى الفترة التى يقضيها التلميذ أمام شاشة التليفزيون والبرامج المفضلة لديه فى المرحلة الأولية والثانوية وكذلك بالنسبة لآباء التلاميذ ومعلميهم. كما بذل الباحث جهدا فى إيجاد علاقة بين مشاهدة التلفزيون والذكاء والعادات القرائية والتحصيل العلمى وغير ذلك من العوامل.

٢ ـ المسح التعليمى:

وهذه لها مجالات متعددة... منها القيام بهذه المسوح بغرض مقارنة التحصيل التعليمى فى مدارس أو نظم أو بلاد مختلفة... ومن بين الدراسات الشهيرة فى هذا المجال ذلك المسح الذى استغرق ست سنوات للتعرف على التحصيل العلمى المقارن للرياضيات فى اثنتى عشرة دولة [٣]... حيث استخدم فى هذا المسح الاجابات القصيرة والاختبارات المتعددة الاختيار وذلك بالنسبة للذين بلغوا سن

(١) Kinsey, Alfred C. et. al, The Sexual Behaviour of the Human Female; Philadelpia, W.B. Sanunsers Co, 1953.

(٢) Witty, Paul "Children of the TV Era" Elmentary English, (May 1967), 528 - 35.

(٣) Husen, Torsten (ed) International Study of Achievement in Mathematics; New York, John Wiley Son Inc. 1967.

الثالثة عشرة وبالنسبة للطلاب فى السنة النهائية لدراستهم الثانوية. واشترك فى هذا المسح ١٣٢,٠٠٠ طالب، ١٣,٠٠٠ مدرس، ٥٠٠٠ مدرسة.

٣ ـ مسح الرأى العام:

يعتبر مسح الرأى العام طريقة للتعرف على آراء الناس بالنسبة للكثير من الموضوعات السياسية والاجتماعية المفتوحة للجدل والمناقشة.. وبدون المسح، فسيكون من العسير أن نتعرف إلا على وجهات نظر الأقليات المنظمة تنظميا كبيراً والتى تعبر عن آرائها بفاعلية عن طريق الكلمة أو الصورة المطبوعة أو المذاعة أو المرئية... وقد استخدمت طريقة المسح هذه لاستطلاع آراء الناخبين قبل التصويت النهائى والتعرف على نسبة المؤيدين أو المعارضين لبعض المشروعات أو القرارات السياسية التى تتحدها الادارة الحاكمة وغير ذلك

ومن الأسماء الشهيرة فى مجالات المسح واستطلاع الرأى العام: جالوب وروبر وهاريس وكروزلى وغيرهم هذا ويقوم الباحثون بعد تجميع المعلومات بتحليلها وتقديم النتائج مصنفة حسب الأعمار أو الجنس أو المستوى التعليمى أو المهنة أو مستوى الدخل أو الاتجاهات السياسية أو مكان الاقامة...

وهناك مصادر للخطأ بالنسبة لتحليل الرأى العام ... فقد فشلت مجلة المستخلصات الأدبية Literary Digest عام ١٩٣٦ فى التنبؤ بالنتائج الانتخابية وذلك بناء على اختيارها لعينة متحيزة (من دفتر التليفونات وأصحاب السيارات).

وفى عام ١٩٤٨ كان التنبؤ خاطئا أيضا بالنسبة لانتصار ديوى على ترومان فى انتخاب الرئاسة.... وذلك لتحول مشاعر الجماهير قبل يوم الانتخاب... ولكن معاهد قياسات الرأى العام أصبحت تتنبأ منذ عام ١٩٦٠ بدقة نسبية معقولة بعد تحسين أساليبها واختيارها للعينة الممثلة للمجتمع واستخدامها للاجهزة الدقيقة.

٤ ـ مسح السوق:

ويعتبر هذا النوع من المسح تطبيقا تخصصياً لمسح الرأى العام... إذ أن مسح السوق

يتضمن محاولة قياس رد فعل الناس بالنسبة للمنتجات الاستهلاكية أو تقييم تأثير الاعلان على العادات الشرائية وزيادة ترويج البضاعة...

وهذا النوع من التحليل له آثاره الهامة لمصممى الاعلانات ورجال الصناعة والموزعين وغيرهم. وباستخدام الاستبيانات والمقابلات [1] يمكن تجميع آراء عينة ممثلة فى المجتمع وتحليل هذه الآراء... وبناء على هذه الآراء يقوم الموزع والمعلن بتقديم السلعة بطريقة أكثر جاذبية للمستهلك. وكذلك يفيد هذا المسح فى التنبؤ ـ بدرجة عالية من الدقة ـ بامكانية التسويق الناجح. ومن المعروف أن رجال الصناعة والتجارة فى السوق التنافسى الحديث يترددون فى المخاطرة بملايين الدولارات اللازمة لانتاج سلعة جديدة أو طراز جديد دون وجود بعض الدليل عن تقبل الجمهور له.

ثالثاً ـ بدايات المسح الاجتماعى:

لم تثبت طريقة المسح فائدتها بالنسبة للاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية إلا فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. فقد كان القرن الثامن عشر كما هو معروف، فترة تميزت بالثورات الاجتماعية، نتيجة للتطورات والتغيرات التى أحدثتها الثورة الصناعية... وظهر المصلحون على الصعيد الوطنى لتصحيح المظالم الاقتصادية واستعادة التوازن الاجتماعى والاستعانة بالمسح فى تحقيق اهدافهم.

وربما يعتبر جون هوارد John Howard واحداً من هؤلاء المصلحين الأوائل فى انجلترا، الذين اهتموا بنوع خاص من الاصلاح... وهو إصلاح السجون... وبذل جهده ووقته من أجل تغيير أوضاع السجون فى انجلترا. لقد قام هوارد بمسح دقيق لأحوال السجون فى انجلترا فى عام ١٧٧٣/ ١٧٧٤ وقدم تقريره إلى إحدى لجان مجلس العموم البريطانى، حيث أثر بشدة على أعضاء اللجان الذين تعودوا سماع الشهادات العاطفية ـ من قبل هوارد ـ دون أن يكون هناك دليل يؤيد هذه

(١) هناك بحوث الدوافع Motivation Research التى تستخدم المقابلات العميقة حتى يقوم علماء النفس بتحليل الدوافع غيرالواعية للمستهلكين انظر:

Packard, Vance. The Hidden Persuaders, New York David McKay Co, 1957.

الانفعالات والمطالب. لقد تقبلت اللجنة معلومات هوارد بكثير من الاحترام والثقة... وصدر قانون يقضي بالعفو عن المسجونين الذين ثبتت براءتهم دون أن يدفعوا أى رسوم نظير نيلهم حريتهم. كما صدر قانون آخر بالتفتيش المستمر على السجون للتأكد من نظافتها وكفالة الرعاية الطبية فيها...

وعلى الرغم من أن المسح الذى قام به هوارد لم يحل بذاته مشكلة حقيقية، ولكن المسح قدم الحقائق بطريقة مقنعة ودقيقة. وكان المسح هو الأساس الذى بنى عليه مجلس العموم البريطانى عمله التصحيحى السليم.

وقد اتجه هوارد بعد ذلك فى بحوثه إلى أوروبا، واستطاع أن يقوم بمسح مقارن.. أى مقارنة أوضاع السجون فى أوروبا بالوضع فى انجلترا.. ولكن هوارد مات وهو يقوم بدراسة أحوال السجون فى الاتحاد السوفيتى عام ١٧٩٠.

وما يهمنا من هذا العرض هو أن هوارد قد أثبت فى المسح الذى قام به قيمة الملاحظات الميدانية المباشرة، وقيمة الجداول الخاصة Specific Schedules (أو الخطوط الأولية التى يعدها كمرشد له فى الملاحظة) كما أثبت هوارد أهمية التحليل المقارن للظروف فى مختلف الأماكن...

أما فى فرنسا فيمكن أن نشير إلى المصلح المعروف فريدريك ليبلاى: Frederic Leplay الذى كان يعمل مهندسا للمناجم وأستاذا للتعدين وسياسيا. وقد كان له علاوة على ذلك اهتمام كبير بدراسة الأحوال الاجتماعية والاقتصادية للعمال..

وقد انفق ليبلاى حوالى ربع قرن من حياته فى التعرف على حياة الطبقات الفقيرة وملاحظة طرائق حياتهم.. وكان نشاطه ذاك فى معظم بلاد أوروبا وبعض بلاد آسيا، ولو أنه كرس الحقبة الأخيرة من حياته فى دراسة الأحوال الاجتماعية والاقتصادية فى فرنسا ذاتها.

وكان ليبلاى يأمل أن تكشف دراسته العناصر الأساسية والضرورية التى توفر للأسرة وللمجتمع حياة الرفاهية السليمة... وحتى يحقق هذا الأمل فقد عاش مع ـ

ودرس بعناية ـ حوالى ثلاثمائة أسرة من أسر الطبقات العاملة فى فرنسا.. وكانت طريقته المفضلة أن يعيش مع كل اسرة وقتا معينا وأن يعوض الأسرة ماديا نظير هذه الإقامة... وكان يدرس مصادر دخل الأسرة بصفة خاصة وكيفية تناولهم لأمورهم المادية والمعيشية.

ويجب أن نشير إلى أن ليبلاى، كان رائداً فى هذا العمل، فلم يجد أمامه طريقة أو خطة علمية يمكن اتباعها فى دراساته لأن أحدا لم يسبقه إلى هذا العمل. واخترع هو الطرق التى يتبعها.

هذا وقد قام ليبلاى بنشر تقريره الأول عن ملاحظاته ودراساته عام ١٨٥٥ تحت عنوان «العمال الأوربيون» Les Ouvriers Europeans.

وقد قام ليبلاى فى العام التالى بتأسيس «الهيئة الدولية لدراسة الاقتصاد الاجتماعى» وشجع الآخرين بذلك على الاسهام فى البحوث والدراسات فى هذا المجال...

ونحن نلاحظ أن قيام ليبلاى بادخال أسلوب الملاحظة المباشرة والتفصيلية لبعض الأسر الممثلة لقطاع معين ـ يعتبر إسهاماً مبتكراً وجديدا فى دراسة المشاكل الاجتماعية. كما وضع أسس استخدام الخطة العامة Outline المفصلة واستخدام المقابلات Interviews والاستبيانات Questionnaires ومراجعة سجلات الحسابات وغيرها من السجلات لتحقيق بياناته.. كما استخدم ليبلاى كذلك «دراسة الحالة» والوصف الموضوعى للتاريخ وأوضاع الأفراد والجماعات...

وبالرغم من أن دراسات ليبلاى لم تقم بحل أى مشكلة من المشاكل الاجتماعية، إلا أن هذه الدراسات قد وفرت معلومات هامة عن جوانب مختارة لحياة الأسرة... ويظن ليبلاى أنه قد اكتشف علاقة قوية بين الرفاهية الاقتصادية للأسرة ونجاحها العاطفى والاجتماعى.. وما زال الباحثون المحدثون يستخدمون الأساليب والطرق التى بدأ بها ليبلاى وذلك بالنسبة للحصول على المعلومات أو بالنسبة لصياغة الفروض...وإن كان بعض اتباعه قد قام بتعديل طريقته ومن بينهم دوترفيل

وديمولان وروزيه... وذلك بتوسيع الاطار الذى يشمله البحث.. أى أن البحث يتناول الأسرة والمجتمع الكبير وتركيبه وخصائصه والعوامل المؤثرة فيه. كما أن هؤلاء المحدثين لم يروا ميزانية الأسرة الشئ الوحيد الذى تدور حوله البحوث... فهناك الروابط بين الزوجين وشعور الأطفال نحو آبائهم والاهتمام بتربية الأطفال وتوجيههم... الخ [1].

وأخيراً فيمكن أن نشير إلى تشارل بوث Charles Booth أحد المصلحين البارزين الذين جاءوا بعد ليبلاى... ذلك لأن بوث أوجد أسلوبا جديدا فى البحث هو «الدراسة الشاملة لحياة المجتمع» وذلك فى دراسته لما تعانيه الطبقات الفقيرة من بؤس وحرمان فى الجانب الشرقى من لندن.

وقد استعان بوث بعدد من المعاونين المدربين.. واستأجر حجرة فى الحى الذى يقوم بدراسته وذلك لملاحظة النشاطات المختلفة لسكانه فى جميع ساعات النهار والليل.. وكان يعمل معهم ويلبس مثلهم أيضا. يسعى وراء المعلومات عن طريق المقابلة المطولة Long Interview (تمكث أحيانا ١٨ إلى ٢٠ ساعة) وإعداد السجلات المكتوبة... واستطاع بذلك أن يعد مجموعة مدهشة من البيانات والاحصاءات المبوبة، التى أظهر بها « العلاقة الرقمية بين الفقر والبؤس والحرمان وبين دخل وراحة الطبقات العمالية».

ويمكن أن نشير إلى الخطوط الرئيسية للطريقة التى اتبعها بوث كما يلى:

١ ـ تجميع البيانات الكمية عن الموضوع المطروح للدراسة.

٢ ـ وصف الظواهر والأشياء التى يلاحظها كما هى، لا كما ينبغى أن تكون، ودون التعرض للأسباب.

٣ ـ التركيز على الأحوال الجارية دون الرجوع للماضى.

(١) عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعى. القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧١، ص ٣٤٤.

٤ ـ الاهتمام بالوصف والمسح الشامل، دون إهمال دراسة الحالة بالنسبة للأفراد والجماعات.

٥ ـ الإفادة من الاحصاءات الرسمية والأهلية فضلا عن السجلات الموجودة لدى الأفراد والجماعات موضع الدراسة.

٦ ـ الاعتماد على الملاحظة المباشرة وعلى إجراء المقابلة الشخصية، باعتبارهما من أساليب جمع البيانات.

٧ ـ تشغيل عدد من المعاونين المدربين وذلك حتى يقارن بين ما يسجله كل منهم من بيانات متعلقة ببعضها.

٨ ـ التحقق من البيانات والمعلومات المجمعة بالرجوع إلى الاتحادات التجارية بالهيئات الصناعية.

٩ ـ الاستعانة باللوحات والرسوم والجداول والصور الممثلة لحياة الناس حتى تتحدث الحقائق بنفسها... وتبدو النتائج واضحة (١).

وقد جاء بعد بوث كثيرون منهم راونترى B.S. Rowentree الذى قارن أوضاع العمال فى المدن الصغيرة بأوضاعهم فى المدن الكبيرة... واستخدم طريقة المعاينة العشوائية Random Sampling. ثم جاء القرن العشرون واستخدمت طريقة المسح بشكل كبير مع إجراء تعديلات عليها تتلاءم مع الظروف المختلفة.. ولزيادة إمكانيات الدقة والثقة فى البيانات المجمعة. كما استخدمت طريقة المسح فى التعليم وفى بحوث التسويق وفى قياسات الرأى العام وفى دراسات جمهور المستمعين والمشاهدين لبرامج الإذاعة المسموعة أو المرئية.

وسنتناول في فصول قادمة أساليب تجميع البيانات كالملاحظة، والاستبيان والمقابلة وتحليل المضمون وغيرها من الوسائل بشئ من التفصيل.

(١) Young, Y. Scientific Social Surveys and Research. New York: Prentice Hall, 1949, pp. 9 - 17.

وأخيراً فينبغى أن نشير إلى أهمية المسح لا باعتباره منهجا للحصول على الحقائق والمعلومات فحسب، بل منهجا يستعين به الباحث للتعميم كذلك، فالباحث يحصل علىى فوائد جمة من وراء المسح الذى يتضمن الحصول على الحقائقFact - Finding Survey ذلك لأن هذا النوع من المسح يصف بدقة موقفا معينا.. ويثير الانتباه للظروف والاحتياجات التى قد لا تتم ملاحظتها بغير هذه الطريقة.

ولكن المسح الذى يعتبر أكثر أهمية بالنسبة للباحثين هو المسح الذى يحدد علاقة السبب والأثر بين ظاهرتين Cause and Effect between two Phenomena أو المسح الذى يؤدى إلى مبادئ عامة صحيحة، تصلح كأساس للعمل فى المستقبل.

فالمسح إذن، لا ينبغى أن ينظر إليه على أنه مجرد أداة للحصول على الحقائق. ذلك لأن المسح يمكن، بل غالبا ما يؤدى إلى فروض هامة أو نتائج تحل المشاكل الجارية الخطيرة.

والمسح كذلك مفيد فى تقديم المعلومات للدراسات المقارنة وفى تحديد الاتجاهات.. فالمسح الذى تم إجراؤه من عشر أو عشرين سنة مثلا يمكن تكراره اليوم.. وسنتعلم شيئا جديدا عن التغيرات التى حدثت فى خلال هذه الفترة. إذا ما أمكن التعرف على معدل سرعة هذه التغيرات واتجاهها المحدد، أمكن فى ذات الوقت التنبؤ بالتغيرات التى يمكن أن تحدث فى المستقبل.

فإدارة الاحصاء مثلا تتنبأ بالزيادة السكانية فى المستقبل فى مختلف المناطق والأحياء بمقارنة أرقام المسح الماضية والحاضرة. وعلى ذلك فيمكننا أن نتعرف على كثير من الحركات والتغيرات أثناء حدوثها. وهذا يتضمن من غير شك استخدام منهج البحث الوثائقى مع منهج المسح... ذلك لأن دراسة الماضى تصبح وثائق... وهذه تتضمن علامات تستخدم فى التعرف على الاختلافات بين الماضى والحاضر.

وسيتبين للباحث بعد هذا كله، أن أى تصنيف لطرق البحث، ومناهجه هو تصنيف اصطناعى وتعسفى.. ذلك لأن الباحث لا يتردد فى استخدام أكثر من منهج

واحد فى نفس الوقت.. فهدف البحث على كل حال هو اكتشاف الحقيقة بأفضل الوسائل الممكنة.

وأخيراً فيمكن أن نؤكد على أن تجميع المعلومات باستخدام أسلوب الاستبيان أو المقابلة مثلا... هو عملية أقل صعوبة من تفسير وتلخيص معنى ومدلول هذه المعلومات. وتشير هذه الحقيقة إلى الضعف الأساسى لطريقة المسح كمنهج للبحث.. فعلى الرغم من أن المسح ـ عندما يتم القيام به على الوجه الصحيح ـ يمدنا بمصادر كافية لتعلم التفاصيل والتعرف عليها ـ وذلك بالنسبة للمواقف أو المشاكل الجذرية أو الحالية ـ فإن على الباحث مهمة استخلاص التعميمات والمبادئ بناء على هذه الحقائق والمعلومات المجمعة. ذلك لأن الحقائق بذاتها، لا تحل المشاكل... ولكن ما يساعد على حل هذه المشاكل هو النتائج التى يستخلصها الباحثون من هذه الحقائق بناء على تفكيرهم السليم والعميق.

رابعاً ـ المسح كمنهج لجعل السياسة علما[1]

Survey as a method of making Politics a Science

لقد جاء الاعتماد على المسح فى العلوم السياسية كمنهج أساسى من مناهج البحث العلمى، متفقاً مع الاتجاه السلوكى Behavioral emphasis والرغبة المتزايدة فى جعل دراسة السياسة أقرب إلى العلم منها إلى الفلسفة.

لقد جمع علم السياسة بالوسائل التقليدية الوثائقية وبالبداهة وغيرها... كميات هائلة من المعلومات عن المؤسسات والممارسات السياسية وكان لها أهميتها القانونية والفلسفية لرجال الدولة.

ومع تأثر الدارسين بالفلاسفة السياسيين الكبار مثل أرسطو وأفلاطون وهوبز ولوك وميكيافيلى وروسو وغيرهم ـ فقد أنتجوا مقالات كثيرة عن موضوعات فلسفية

(١) McClosky, Herbert. Political Inquiry; the Nature and Uses of Survey Research. Berkeley, Macmillan Co., 1969, pp. 8 - 10.

وتأملية مثل طبيعة الالتزام السياسي، التوازن الأمثل بين النظام والحرية السياسية، المتطلبات الأخلاقية للديمقراطية، وعلاقة الدولة بالطبيعة الانسانية...

هذا ويهدف العلم إلى صنع تركيب متماسك للمعرفة حيث يرتبط فيه كل موضوع تجريبي ببقية الموضوعات الأخرى بطريقة منتظمة ثابتة... وحيث يستطيع الباحث ـ من حيث المبدأ ـ أن يوضح وأن يشرح جميع الحقائق الواردة.

فالعلم يقترب من الظواهر ليس باعتبارها أحداثا حدثت بالفطرة، ولكن باعتبارها حالات يستطيع الباحث ـ من حيث المبدأ ـ أن يقيم وأن يرسم أوجه اختلافها أو انتظامها.. وحتى يتحقق من ذلك، فعليه أن يتبع طرقا صارمة للتحقق من «الحقائق» واختبار صحة شرحها وتفسيرها... فالعلم إذن يجب أن يطور الأساليب اللازمة لاكتشاف وتصحيح الأخطاء التي تحدث في عملية القياس وأن يكون مستعدا لأن ينحي جانباً تلك النظرات والتفسيرات التي لا تتفق مع الدليل مهما كانت هذه النظرات عزيزة أو محببة.

والباحث يستطيع أن يتقدم خطوة بعد خطوة من المعلوم إلى غير المعلوم على أن يربط وأن يصل كل نتيجة يصل إليها بجسد المعارف الموجودة.... ويحرز التقدم العلمي ـ بهذه الطريقة ـ نجاحات سريعة لأن المعارف الجديدة تنمو ـ بطريقة متضاعفة exponential كلما اتسعت دائرة المعارف الموجودة بصفة مستمرة. وهذه القدرة التضاعفية للمعلومات تعتبر أحد المظاهر الملحوظة في العلوم الطبيعية، وهي تقع في موطن القلب من الانفجار الصناعي العلمي الحديث... كما أن التخلف النسبي للعلوم الانسانية والاجتماعية يرجع ـ جزئيا ـ إلى بطء هذه العلوم في تبني الطرق المنهجية التراكمية للبحث العلمي..

هذا وتهدف الدراسة العلمية للسياسة ـ كما يراها السلوكيون ـ إلى كشف وملاحظة وشرح بعض الاختلافات والانتظامات regularities في الظواهر السياسية. وحتى يصل الباحث إلى ذلك فيجب أن يتخذ أسباب الموضوعية والدقة على قدر

المستطاع... وأن يضع الفروض بوضوح وأن يستخدم بياناته بطريقة تختبر هذه الفروض مع استخدام الاصطلاحات واللغة الدقيقة المحددة للأفكار والمفاهيم..

والباحثون الذين يعتمدون في عملهم على الدراسات التى تمت بالطرق العلمية يعرفون منها الصادق والموثوق فيه، وبالتالى فسوف لا تقودهم المعلومات الكاذبة فى متاهات ودروب خادعة وإلى استنتاجات غير مؤكدة قام بها أسلافهم. وعلى ذلك فإن العلماء السلوكيين يؤدون ويركزون على الطرق والمناهج المستخدمة للتحقق من الفروض ومن الايضاحات التى يضعها الباحث... وبمقاييس ومعايير العلماء السلوكيين لم يعد كافياً للباحث أن يضع نظرية أو شرحا تغلب عليه الاستمالة Persuasion أو الكياسة أو الجمال أو التألق ذلك لأن هذه النظرية أو ذلك الشرح يجب أن يكون صحيحا valid بناء على الدليل evidence وبناء على اجتيازه للاختبارات الاحصائية النافذة.

ومعنى ذلك كله أن العالم السلوكى Behavioral Scientist يتخذ كل ما يستطيع من أسباب لإقامة الحواجز بينه وبين تحيزاته الشخصية واعتقاداته الذاتية.. ولا يدافع عن رسالته ـ كما يفعل الباحثون بالبداهة ـ بالمقالات الاستمالية.

والعالم السلوكى كذلك يقوم ببحثه بطريقة مقصودة واعية تكشف تركيب وتصميم البحث ولا تخفيه... وتكشف طبيعة الإجراءات المتبعة ودرجة القوة والانتظام فى النتائج التى يصل إليها.. فهدفه النهائى هو الوصول إلى نظرية نسقية Systematic Theory كافية لشرح الظواهر السياسية وعلى أكبر مدى ممكن من الاتساع والتنوع [1].

(١) - Dahl, R.A. "The Behavioral Approach in Political Science", American Political Science Review, Vol. 55, Dec. 1961., pp. 763 - 772.

- Alpent, Harry, "Public Opinion Research as Science". Public Opinion Quarterly, vol. 20, Fall, 1956, pp. 493 - 500.

وعلى الرغم مما نتوقعه من نتائج طيبة، بناء على انتهاج المسلك السلوكى الذى يعتمد على الأساليب العلمية فى البحث إلا أننا لا ينبغى أن نغفل فى كتاب عن «أصول البحث ومناهجه» ما يراه الفريق الآخر من الفلاسفة والعلماء السياسيين ووجهة نظرهم بالنسبة للدراسات السلوكية السياسية... فعلى سبيل المثال يقول هانزج مورجانتاو فى مقدمة كتابه «السياسة بين الأمم» الطبعة الرابعة ما يلى:

«لقد تعلمت من الخبرة التاريخية والشخصية أن الجدل الأكاديمىAcademic Polemics لا يعمل عادة على تقدم الحقيقة ولكنه يترك الأشياء كما وجدها. إن الشئ الحاسم بالنسبة لنجاح أو فشل أى نظرية، يعتمد على مقدار إسهامها فى معارفنا وفهمنا للظواهر الجديرة بفهمنا ومعرفتنا... يجب أن نحكم على النظرية بنتائجها وليس بناء على إدعاءاتها فى فلسفة المعرفة والمنطق واختراعاتها المنهجية» [1].

وعلى الرغم من هذا النزاع الأكاديمى، فلا يجد المؤلف تناقضاً أساسياً بين الاتجاهين اللذين يسعيان لفهم الحقائق مستعينين بمناهج البحث المختلفة... وإذا كان التقدم العلمى يعتمد على المنهج، يدور معه وجوداً وعدما، صدقاً وزيفاً.. فقد أكدنا فى أكثر من موضع على أنه من المفضل اتباع أكثر من منهج واحد فى البحث للوصول إلى الحقيقة... وعلى الاستعانة بأدوات البحث الدقيقة المتقدمة، فضلا عن أن التفكير العلمى ذاته يتضمن كلاً من التدليل الاستقرائى والاستنباطى.

ملخص:

يعتبر المسح (وهو جزء من البحث الوصفى) عملية نتعرف بواسطتها على المعلومات الدقيقة المتعلقة بموضوع البحث وذلك بالنسبة للمواقف الحالية أو الجارية، لا القديمة... ولقد أثبتت طريقة البحث فعاليتها وأهميتها بالنسبة لكثير من الدراسات الاجتماعية والتعليمية والسياسية والاقتصادية والتجارية وغيرها.

(١) - Morgenthau, Hans J. Politics Among Nations; The struggle for Power and Peace. New York. Alfred A. knopf, 1968, p.vii.

ويتضمن المسح المثالى استخدام العينة المختارة اختياراً سليماً لتمثيل المجتمع الكلى موضع الدراسة... وذلك بغرض الملاحظة المباشرة والدقيقة لمختلف الظواهر المطلوبة فى البحث. ويجب أن تكون العينة ـ إلى جانب تمثيلها للمجتمع موضع الدراسة تمثيلا صحيحا ـ أن تكون كبيرة الحجم نسبيا، وذلك حتى تؤدى إلى نتائج موثوق فيها.

إن الأساليب الرئيسية المستخدمة فى المسح لتجميع البيانات هما أسلوبا الاستبيان والمقابلة.. وكل واحد من هذه الوسائل يجب تخطيطها تخطيطا محكما سليما، وذلك لأن هناك مزالق كثيرة فى استخدامها.. فإلى جانب الأخطاء التى تنتج من المعاينة غير الصحيحة، فهناك بذور أخطاء ممكنة فى تصميم، الاستبيان نفسه... وهناك تحيز الباحث، وتحيز الممول لمشروع البحث واستخدام لغة تحتمل التأويل وعدم الشرح الكامل لغرض ونطاق البحث والدراسة... وغير ذلك من الأخطاء فى الموضوعية وفى الاتصال... مما يؤدى إلى تشويه النتائج.

وعلى العموم... فيمكننا أن نقول بأن جمع البيانات والحصول عليها بطريقة المسح أسهل كثيرا من الوصول إلى النتائج الصحيحة والسليمة المبنية على هذه الحقائق المجمعة... كما أن المسح لا ينبغى أن يكون مجرد وسيلة لجمع الحقائق والحصول عليها... ذلك لأن المسح يمكن أن يكون وسيلة اختبار وإرساء قواعد ومبادئ لمقارنة الماضى بالحاضر، وللتعرف على الاتجاهات المختلفة، وبالتالى تقديم أساس سليم للعمل الاجتماعى والسياسى والتجارى.

الفصل السابع عشر

منهج دراسة الحالة

ـ تعريف دراسة الحالة:

يهتم منهج دراسة الحالة بتجميع الجوانب المتعلقة بشئ أو موقف واحد على أن يعتبر الفرد، أو المؤسسة، أو المجتمع أو أى جماعة، كوحدة للدراسة ويقوم منهج دراسة الحالة على التعمق فى دراسة المعلومات بمرحلة معينة من تاريخ حياة هذه الوحدة، أو دراسة جميع المراحل التى مرت بها.

هذا ويتم فحص واختبار الموقف المركب أو مجموعة العوامل التى تتصل بسلوك معين فى هذه الوحدة، وذلك بغرض الكشف عن العوامل التى تؤثر فى الوحدة المدروسة أو الكشف عن العلاقات السببية بين أجزاء هذه الوحدة... ثم الوصول إلى تعميمات علمية متعلقة بها وبغيرها من الوحدات المشابهة[1].

ومعنى ذلك أن الوحدة التى يقوم الباحث بدراستها فى منهج دراسة الحالة يمكن أن تكون فرداً أو أسرة أو جماعة أو مجتمعاً كاملاً، حيث يقوم الباحث بالتحليل العميق للتفاعل الذى يحدث بين العوامل التى تؤدى إلى التغيير والنمو والتطور على

(١) انظر فى تحديد صفات وتعريف دراسة الحالة: المرجعين التاليين:

- Good, C.V. and Scates, D.E.. op. cit.. pp. 726 - 730.

- Best, John W. op. cit.. p. 127.

مدى فترة معينة من الزمن [1].

ومعنى ذلك أيضا، أن الوحدة موضع الدراسة، قد تكون جزءاً من حالة فى إحدى الدراسات ويمكن أن تكون هى نفسها حالة قائمة بذاتها فى دراسة أخرى.

ويذهب بعض الكتاب إلى التمييز بين مصطلح دراسة الحالة Case Study ومصطلح خدمة الفرد Case Work على اعتبار أن دراسة الحالة تعنى بالبحث العميق لوحدة معينة، بينما تتصل خدمة الفرد ـ بصفة خاصة ـ بالاجراءات التطويرية والعلاجية والاصلاحية.. التى تجئ بعد تشخيص أسباب الحالة.... فعملية دراسة الحالة إذن تتكامل مع عملية خدمة الفرد.

كما يرجع شيوع استخدام منهج دراسة الحالة خلال نصف القرن الماضى ـ فى نظر البعض ـ إلى ظهور نظرية الجشطلت Gestalt التى لفتت الانتباه إلى ضرورة الاهتمام بالموقف الكلى الذى يتفاعل فيه الكائن الحى، واعتبا هذا الكائن الحى: جزءاً من الموقف لا ينفصل عنه إلا بقصد التحليل فقط [2].

---

(١) انظر أمثلة من دراسة الحالة بالنسبة للأفراد (+) أو المؤسسات الاجتماعية (0) أو الجماعات الثقافية والمجتمعات (*) فيما يلى:

+ - Freeman. Lucy. Feght Against Fears, York, Crowon Publishers 1951.

وهذه الدراسة تتضمن رواية شخصية للتحليل النفسى لاحدى السيدات مكتوبة بأسلوب سهل..

+- Marton, John B. (reporter) My Life in Crime, The Autobiography of a Professional Criminal, New York nHarper and Bros., 1952. 279 p.

0 - Queen, Stuart A. and Adams, John B. The Family in Various Cultûres;
A Survey of Eleven Family Systems in Eleven Cultural and Historical Settings througout the World, Chicago, J.B. Lippincott, 1952, 280 p.

0 - Steis, Harold. "Preparation of Case Studies; the Problem of Abundace", American Political Science Review 45, June 1951, pp. 479 - 87.

· Allbaugh, Leland G; Axase study of an underdeveloped Area, Princeton; Princeton Univerdity Press, 1953. 592 p.

· Beals, Ralph L. "The Village in an Industrial World", Scientidic Monthly, 77, August 1953, pp. 65 - 75.

(٢) على الرغم من أن قدماء المصريين قد استخدموا منهج دراسة الحالة فى دراسة حالات المرض وحالات المجرمين، واستخدمها المؤرخون فى وصف حياة الناس والأمم. إلا أن استخدام هذا المنهج على أسس علمية منظمة: يعود إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر على يد لى بلاى فى دراسته للأسر العاملة فى فرنسا... كما يعتبر عام ١٩١٥ نقطة تحول كبيرة بالنسبة لهذا المنهج وذلك عندما نشر وليام هيلى W. Healy كتابه عن «الأحداث الجانحين»... وانتهى من دراسته العميقة تلك... إلى أن الاحصاء وحده لا يروى القصة كاملة.. ولا يكفى لفهم الإنسان والظروف المحيطة به..
المصدر: عبد الباسط محمد حسن المرجع السابق، ص ٣٦٥، ٣٧٧.

بعض امثلة من دراسة الحالة:

لقد اعتمد سيجموند فرويد ـ مؤسس علم التحليل النفسى ـ فى صياغة كثير من نظرياته عن الوعى الباطن (أو العقل الباطن) : اعتمد على إجراء «دراسة للحالة» وذلك على فترات طويلة سواء بالنسبة للرجال أو النساء... وعلى الرغم من أن هذا النوع من الدراسات يكتنفه بعض الذاتية Subjectivity من جانب الباحث، إلا أن طريقة دراسة الحالة تؤدى إلى اكتشاف معلومات قد لا يستطيع الباحث الحصول عليها بدون هذا المنهج... كما استخدم فردريك لى بلاى تاريخ الحالة جزئياً، أثناء دراسته عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية للأسر الفرنسية الكادحة... وقد تبين لهذا العالم أن المسح الاحصائى ـ مهما كانت درجة الثقة فيه ـ لا يعطينا صورة مفهومة تماماً، عن الموقف الكلى الذى يقوم الباحث بدراسته. وذلك لأنه يبدو أن البيانات والمعلومات الكمية الاحصائية وحدها، لا تكون كافية للاحاطة والحكم على المواقف المختلفة بصفة كلية.

وعندما تكون الدراسة على «الانسان» فإن الأمثلة الفعلية عن تاريخ هذا الفرد أو الانسان وتطور خبراته ومعارفه ـ تضيف ـ من غير شك ـ بعداً حقيقياً إلى الصورة، وإذا كانت البيانات والمعلومات الكمية تميل إلى جعل هذا الوصف مجرداً Abstract فإن تاريخ الحياة يمكن أن يجعل البحث إنسانيا Human.

وهذا يقودنا إلى مناقشة قصيرة إلى علاقة دراسة الحالة بمناهج البحث الأخرى ومن بينها المنهج الاحصائى.

علاقة دراسة الحالة بمناهج البحث الأخرى:

هناك علاقة تكامل بين دراسة الحالة.. ومناهج وأساليب وأدوات البحث الأخرى.. ففى معظم البحوث الاجتماعية والنفسية والسياسية... فإن المسح ودراسة الحالة يكملان بعضهما بعضاً، وهناك علاقة وثيقة بينهما...

كما أن المتابعة الناجحة لتاريخ حياة أحد الأفراد أو عمليات تطوير إحدى الهيئات أو المجتمعات ـ تتطلب مصادر وقواعد البحث الوثائقي أو التاريخي...

كما يستخدم منهج دراسة الحالة وسائل جمع البيانات كالاستبيان وبطاقات العلامات Score Cards ومقاييس التدريج Rating Scals كما أن الملاحظة المباشرة ضرورية في معظم الأحوال... وربما تخدم المقابلة Interview كوسيلة لملاحظة الأعراض أو العلامات وتجميع البيانات والتشخيص والمعالجة والمتابعة.

أما الأساليب الاحصائية: فهي تستخدم عندما تكون الحالات مصنفة وملخصة لتكشف عن عدد مرات تكرار حدوث الظاهرة. فضلاً عن التطورات والاتجاهات ونماذج السلوك [1].

ويجدر بنا ونحن نناقش المفاهيم الاحصائية وعلاقتها بدراسة الحالة أن نشير إلى ما كتبه الدكتور حامد عمار عن المفاهيم الاحصائية والفهم الاجتماعي إذ يقول:

في المفاهيم الاحصائية تركيز وتجميع للمعلومات والخبرات، ولا يمكن أن يستغني عنها في المجتمع الحديث... ولكن الذي يمكن أن نتساءل عنه، وهو مزلق من مزالق الأرقام، هو أن يكون الاحصاء والعد نشاطاً بشرياً يتشح بصفة «العلمية» ليكون بديلاً عن فهم الإنسان «كل الإنسان». إن مصدر الخشية هو أن يتحول الإنسان إلى رقم، كما كان يحدث في المدارس السلطانية العثمانية، حيث كان للطلاب أرقام يعرفون بها فتغني عن أسمائهم... بل وتغني عن محاولة فهمهم كأفراد.

ولو أخذنا مفهوماً احصائياً شائع الاستعمال مثل مفهوم المتوسط الحسابي فلا بد من التساؤل عن مدى امكانية الثقة في المتوسط الحسابي في فهم الناس أو الأوضاع أو في عمل البرامج أو في حل المشكلات. فهل قابلت أيها القارئ مثلا فلاحاً يمتلك ١,٤ من البقر، ويتزوج ١,٢ من النساء ورزقه الله بعدد ٤,٨ من الأولاد،

(١) Good, Carter V. Scales, D.C. op. cit, pp. 730 - 731.

ويلبس ١,٣ من الجلاليب ويصلى ٢,٦ من الأوقات وينفق ٣,٧ من دخله فى المكيفات. أين مثل هذا الرجل؟ إنها متوسطات حسابية قد تكون ضرورية للفهم، ولكنها تسدل غشاوة على فهم الحالات الواقعية [١].

أما بولين يونج فتقول فى كتابها عن البحث والمسوح الاجتماعية العلمية: أن من يستخدم منهج دراسة الحالة يستطيع أن يختبر مواقف وأشخاص وجماعات ونظم اجتماعية بحيث تكون نظرته إليها نظرة كلية... ومن الممكن أيضاً أن يصل الباحث إلى تعميمات عن طريق دراسة عدد من الحالات وتجميع البيانات والمعلومات عنها بطريقة علمية سليمة... كما قد تكشف هذه التعميمات عن عوامل سببية عديدة تؤثر فى الموقف الاجتماعى... بينما لا يكشف الاحصائى باستخدامه لمعاملات الارتباط إلا عن العلاقة بين ثلاثة أو أربعة عوامل على الأكثر فى وقت واحد [٢].

وخلاصة هذا كله، أن منهج دراسة الحالة يتكامل مع المناهج والأدوات والأساليب البحثية الأخرى، كما أن الإحصاء بصفة خاصة قد لا يكفى لشرح وتفسير العوامل الديناميكية الانسانية المؤثرة فى الموقف الكلى.. ومن هنا كانت أهمية دراسة الحالة والبعد بها عن التجريد، وفى فهمها فهماً متعمقاً وشاملاً.

ـ خطوات دراسة الحالة:

١ ـ تحديد الظاهرة أو المشكلة أو نوع السلوك المطلوب دراسته...

٢ ـ تحديد المفاهيم والفروض العلمية والتأكيد من توفر البيانات المتعلقة.

٣ ـ اختيار العينة الممثلة للحالة التى يقوم بدراستها.

٤ ـ تحديد وسائل جمع البيانات كالملاحظة والمقابلة والوثائق الشخصية كتواريخ الحياة والسير والمفكرات... الخ.

---

(١) حامد عمار المنهج العلمى فى دراسة المجتمع، وضعه وحدوده. القاهرة، دار المعرفة، ١٩٦٤ ص ٢٠ ـ ٢١.. ويمكن الاطلاع على المنهج الاحصائى ولغة الاحصاء فى كتابنا هذا للاستزادة عن أهمية الاحصاء فى البحث العلمى.

(٢) Young, Pauline Scientific Social Surveys and Research, 4 th ed, Englewood Cliffs, N.J. Prentice - Hall Inc, 1966.

٥ ـ تدريب جامعي البيانات.

٦ ـ جمع البيانات وتسجيلها وتحليلها.

٧ ـ استخلاص النتائج ووضع التعميمات [١].

ـ المعلومات المطلوبة لدراسة الحالة وكيفية التحقق من صحتها:

تشمل «الحالة» في تعريف الباحث، أي شخص أو مجموعة من الأشخاص (الأسرة/ مؤسسة/ مجتمع) يرغب الباحث في دراستها بتفصيل كبير. (ويمكن أن تستخدم هذه الطريقة في ظروف معينة على الحيوانات أيضاً).

والخطوة التالية بعد هذا التعريف والتحديد، أن يقوم الباحث بتجميع كل المعلومات المتوفرة، والتي لها أي علاقة ممكنة بتاريخ حياة وتطور الفرد المفحوص. وعندما ينتهي الباحث من هذا التجميع المفصل لكل الحقائق الدقيقة عن الشخص، فإن الباحث يستطيع أن يرسم وأن يضع صورة كاملة ومستمرة لخبرات هذا الشخص المفحوص وأفكاره، على مدى فترة معينة من الزمن، وبالتالي أن يقدم لنا تفسيره لهذه الخبرات والأفكار...

وقد تبدو هذه الخطوات شبيهة ـ إلى حد ما ـ بالبحث الوثائقي... وفي واقع الأمر فإن طريقة «دراسة الحالة» شبيهة فعلا «بالبحث الوثائقي» مع فارق واحد هو أننا في «دراسة الحالة» نتناول الأشخاص الأحياء والجماعات الاجتماعية.

هذا ويمكن الحصول على البيانات والمعلومات في «دراسة الحالة» من مصادر عديدة. وأول هذه المصادر وأهمها هو الشهادة الشخصية Personal Testimony للفرد (مثل طريقة فرويد في سؤال مرضاه، لاستعادة ذكرياتهم عن خبراتهم ومشاعرهم السابقة..) ومن بين المصادر أيضاً الوثائق الشخصية الرسالات والمفكرات والصحف... الخ) بالاضافة إلى القياسات البيولوجية والنفسية والاجتماعية.

(١) عبد الباسط محمد حسن. المرجع السابق، ص ٣٨٠ - ٣٨١.

ويمكن أن تتضمن الوثائق المفحوصة ـ علاوة على الرسالات والمفكرات ـ ترجمة أو سيرة حياة الشخص ذاته Autobiography الوثائق المجمعة عن المدارس التى دخلها، وهيئات الخدمات الاجتماعية، والتاريخ الطبى، والمحادثات والمقابلات الاكلينيكية وغير ذلك من المواد المشابهة...

هذا وينبغى التأكيد على ضرورة فحص وتحليل هذه الوثائق والمصادر بنفس الطريقة التى سبقت الاشارة إليها عند دراستنا للبحث الوثائقى، وذلك لتحديد درجة أصالتها Authenticity ومعناها الصحيح.

والباحث لا يهدف عادة من «دراسة الحالة» إلى الوصف الدقيق للشخص أو الجماعة المفحوصة، ولكنه يهدف أيضاً إلى التعرف على الأسباب الرئيسية التى أدت بالفرد أو الجماعة إلى وضعها الحاضر Present status.

وهذه الأسباب يمكن أن تكتشف عن طريق التحليل الدقيق لجميع البيانات والمعلومات المتوفرة... وإن كان ذلك ليس أمراً مؤكداً، يحدث فى جميع الأحوال.

ولكن هذه المعلومات والحقائق التى تتجمع بالنسبة لوضع وتطور فرد أو جماعة معينة، يمكن أن يستخدمها الباحث فى تحسين هذا الوضع أو تصحيح اتجاه غير مرغوب فيه.... ومعنى ذلك أن النتيجة الكاملة «لدراسة الحالة» يمكن أن تؤدى إلى الاصلاح أو العلاج، وإن كانت مشكلة العلاج والاصلاح تقع ـ فنياً ـ خارج دائرة البحث المقصود بدراسة الحالة..

فطريقة دراسة الحالة وتاريخها تؤكد فقط على التعرف على الحقائق والقيام بتحليلها بغرض الوصول إلى استنتاجات ومبادئ عامة من هذه الحقائق... أما استخدام هذه الحقائق فى الاصلاح الاجتماعى أو السياسى أو العلاج النفسى... فهذا نشاط مختلف تماماً، على الرغم من أن هذا الاصلاح ربما يكون الخطوة المنطقية التالية للبحث والدراسة...

إن الفرق بين طريقة المسح ودراسة الحالة يكمن بصفة رئيسية فى أن المسح يعتبر دراسة كمية، حيث تتجمع البيانات أو القياسات من عدد كبير من الوحدات الفردية (الأشخاص عادة)، أما فى دراسة الحالة فإن الباحث يفحص بعناية واحدة أو أكثر من هذه الوحدات (التى نسميها الحالات).... ويفضل أن تكون هذه الحالات المفحوصة... تلك التى تبدو أكثر تمثيلاً للمجتمع أو الموضوع المدروس. وعلى كل حال فقد سبقت الاشارة إلى أهمية استخدام طريقتى المسح ودراسة الحالة مع بعضهما، أى أن الواحدة منهما تكمل الأخرى، فضلا عن الاستعانة بمناهج البحث وأدواته الأخرى كذلك.

ـ بعض الأساليب المستخدمة في دراسة الحالة:

يمتنع الباحث الذى يقوم بدراسة تاريخ الحالة عادة عن الحكم Judging على شخصية أو دوافع الشخص موضع الدراسة، ومعنى ذلك أن الباحث يحتفظ بموضوعيته العلمية حيال سلوك هذا الشخص. وعلى الرغم من أن الموضوعية التامة قد تكون عسيرة التحقيق، إلا أن الباحث يحاول تسجيل الحقائق كما يجدها.. أى دون مدح أو قدح لهذه الحقائق.. ذلك لأن الباحث الذى يدخل تحيزاته الشخصية ومعاييره الأخلاقية أو معتقداته فى الدراسة، ربما يرى الحقائق بصورة غير سليمة كما قد يشوه هو معناها ودلالتها. فمهمة الباحث هنا ـ كما هو الحال بالنسبة لجميع طرق ومناهج البحث ـ هى التعرف على الطبيعة الحقيقية للأشياء والناس... ومهمة الباحث فى طريقة «دراسة الحالة» هى دور التشخيص أكثر منه دور الاصلاح Diagnosis rather than reform.

ويمكن أن تعتبر المقابلة الشخصية Personal interview أكثر الأساليب الشائعة المستخدمة فى «دراسة الحالة»... وهذا يعنى الوصول إلى المعلومات بطريقة مباشرة من الشخص موضع الدراسة... والمقابلة الشخصية فى دراسة الحالة تكون أقرب إلى الحالة الطبيعية للشخص وعدم التقيد بالرسميات، وربما كان ذلك ما يميزها عن المقابلة كوسيلة لتجميع البيانات والمعلومات فى طريقة المسح. فالمناقشة والحديث الحر أمر

يشجعه ويحرص عليه منهج «دراسة الحالة»، أى أن العلاقة بين الباحث والشخص الذى تتم معه المقابلة تصبح شرطاً هاماً للمقابلة.. وذلك مع احتفاظ الباحث المجرب بموقفه الموضوعى على قدر الإمكان.

ونحن نذكر كيف أن لى بلاى Le Play وهو أحد رواد استخدام ما نسميه نحن الان بطريقة دراسة الحالة ـ قد عاش بين عائلات العمال التى كان يقوم بدراسة أحوالها الاقتصادية والاجتماعية فى فرنسا... وإن كان ما يؤخذ على هذه الطريقة غير الرسمية، صعوبة كتابة وتدوين الملاحظات والمناقشات بين الباحث والشخص المفحوص بدقة كافية.

وعلى ذكر كتابة الملاحظات، فيجب أن نشير إلى أن هذا الجزء من طريقة دراسة الحالة، يعتبر جزءاً أساسياً، فالمذكرات أو الملاحظات يجب أن تدون خلال عملية المقابلة. وإذا تعذر ذلك فيجب أن تكتب بعد المقابلة مباشرة... ومن المفضل أن تكون هذه المذكرات بكلمات المتحدث نفسه... ويمكن للباحث المدرب أن يدون ـ خلال مقابلته ومناقشته الحرة ـ ما يريد كتابته دون أن يسبب ذلك قلقاً للشخص الآخر، ولكن الشئ الذى يجب أن نؤكده هو ضرورة اكتمال وصحة المذكرات على قدر الامكان. وذلك نظراً لأن الباحث لا يعرف مقدماً ـ فى جميع الظروف ـ أى البيانات ستثبت دلالتها وفائدتها بعد التحليل النهائى.

إن استخدام الاستبيان أو التخطيط المعد مسبقاً فى «دراسة الحالة» لا يؤدى دائماً إلى أفضل النتائج... ذلك لأن هذا الاعداد المسبق قد يحول بين المتحدثين وحرية الحديث، بل قد يشجع على المراوغة والكذب.. أضف إلى ذلك أن الأسئلة الخاصة بتاريخ حياة الشخص لا تتم الإجابة عليها بطريقة «نعم» و «لا» أو بعلامة معينة... كما أن الإجابات المفيدة فعلا، يمكن أن تكون الإجابات المفصلة وبالتالى الطويلة.

وأخيراً، وكما سبق لنا التنويه، فإن المواد المميزة لدراسة الحالة ليست بالضرورة مواد كمية... فهذه المواد قد تتصل بصفة أكبر بالطريقة الوثائقية للبحث أكثر من اتصالها بالأساليب الكمية السائدة فى استبيانات المسح...

هذا وبالإضافة إلى المقابلات، فسيكون هناك البحث عن الوثائق المكتوبة ودراستها دراسة مستفيضة... كما يجب التحقق من المعلومات التى يتم الحصول عليها فى المقابلة، بمختلف الوسائل... كالخطابات والمفكرات والحسابات والسجلات الطبية والمدرسية وسجلات الخدمات الاجتماعية، والصحف... الخ... آخذين فى الاعتبار دائماً البيانات الأكثر دلالة واتصالاً بأعراض الدراسة والبحث.

وإذا كنا قد أشرنا إلى أن دراسة الحالة لا تتطلب من الباحث أن يتقيد بخطة محكمة مسبقة أو بأسئلة استبيان مخطط لها من قبل... فإن هذا لا يعنى أن تتم المقابلة دون أى تنظيم، بل من المفضل أن يكون هناك ترتيب وتنسيق على قدر الإمكان فى إدارة الحوار... على أن تشمل البيانات المسجلة فى تاريخ الحالة المعلومات التالية على الأقل:

- تاريخ المقابلة والحصول على المعلومات.
- أسماء الأشخاص الذين أدلوا ببياناتهم.
- الكلمات الفعلية المستخدمة فى هذه البيانات.
- وصف مختصر للظروف المحيطة بعملية المقابلة.
- ملخص للأساليب الخاصة التى استخدمت فى أى جزء من الدراسة (مثل الملاحظة الشخصية المباشرة، المقابلة، الاستبيان... وغيرها من الأساليب المشابهة).
- تحديد الشخص أو الوثيقة التى تمدنا بالمعلومات.
- ملاحظات مكملة...

إن الموضوع كله (وهذه يمكن أن نتعلمها أكثر من الخبرة) هو ما يلى: إن أى خطوة تتم فى دراسة الحالة - يجب أن تكون كاملة. إذ أن هذه الخطوة سوف لا تتكرر مرة أخرى.

إن دراسة الحالة التى تتم بصورة صحيحة، تتطلب عادة فترة طويلة من الزمن، وبدلا من القيام بمقابلة واحدة، فربما يتطلب الأمر سلسلة طويلة من المقابلات للحصول على شكل وكمية المعلومات المطلوبة، والعثور على العوامل والأسباب ذات الدلالة والأهمية....

ونظراً لأن دراسة تاريخ الحالة تتطلب وصف تطور الشخص، لا فى وقت محدد، بل على مدى طويل من الزمن، فإن الذاكرة أو الوثائق لا تزودنا بمعلومات كاملة بصفة مباشرة... فالباحث فى دراسة الحالة لا بد أن يتحلى بالصبر. لأن هذا النوع من العمل يتميز بالعمق والشمول... فبدلا من اختيار بعض العبارات أو الفقرات ثم محاولة الحصول على البيانات المتعلقة عنها من مصادر كثيرة متنوعة، كما هو الحال فى المسح، فإن الباحث فى «تاريخ الحالة» يركز كل اهتماماته فى تعلم كل شئ يستطيع تعلمه بثقة عن عدد محدود من الحالات...

ـ نقد منهج دراسة الحالة وحدوده:

هناك بعض النقد لمنهج دراسة الحالة وذلك بالنسبة لحدود الاعتماد عليه كطريقة للبحث. وأهم نقاط هذا النقد يمكن إجمالها فيما يلى:

١ ـ لا يعتبر هذا المنهج علمياً بصفة كلية، لأن عنصر الذاتية Subjectivity والحكم الشخصى موجود فى اختيار الحالات وفى تجميع البيانات.

٢ ـ عدم صحة البيانات المجمعة... فقد يعمد الشخص المبحوث إلى إرضاء الباحث بأن يقول له ما يعتقد أنه يرضيه... فضلاً عن أن المبحوث قد يذكر الحقائق، لا كما حدثت بل من وجهة نظره، لتبرير نظرته أو سلوكه. كما قد يحاول المبحوث أيضاً، التهـوين أو التهويل من بعض الأحداث، وقد يلجأ إلى التركيز على الجوانـب التى تهمه مغفلاً الجوانب الأخرى المناقضة لرأيه...

٣ ـ صعوبة تعميم النتائج... وذلك لاختلاف الحالة المفحوصة عادة عن غيرها من الحالات...

٤ ـ ينفق الباحث فى دراسة الحالة كثيراً من الوقت والجهد والمال قد لا يبرر النتائج التى يصل إليها...

وعلى كل حال فمعظم هذه الاعتراضات، لا يختص بها منهج دراسة الحالة من دون جميع مناهج البحث الأخرى، كما أنه مع تطور الأساليب الموضوعية التى يمكن استخدامها مع «دراسة الحالة» فستزيد أهمية هذا المنهج. أما فى الوضع الحاضر فقد أثبتت «دراسة الحالة» فعاليتها وقيمتها فى مجالات متعددة كالتعليم والاجتماع وغيرها، وبذلك يمكن التغاضى عن أسباب الضعف الكامنة فى هذا المنهج.... وما ينبغى أن نؤكد عليه هنا هو أننا نتمكن باستخدام هذا المنهج من أن نرى العلاقة بين العوامل المعزولة، بصورة أكثر وضوحاً عن طريق الدراسة المعمقة للحالة.... أى أننا نراها أكثر وضوحاً من مجرد التحليل الكمى.

ملخص:

تتضمن طريقة دراسة الحالة التحليل الشامل والدقيق لتطور ووضع شخص من الأشخاص أو جماعة أو هيئة.... وهذه الطريقة يمكن أن تستخدم بفعالية مع طريقة المسح، أى أن كلاً من طريقة المسح ودراسة الحالة تكمل الواحدة منهما الأخرى....

أما المواد المستخدمة فى بحوث دراسة الحالة، فتشمل المعلومات التى يمكن الحصول عليها من مصادر متعددة كالمقابلات الشخصية والوثائق الشخصية والمسجلات الطبية أو التعليمية أو الخدمات الاجتماعية أو غيرها...

وربما تعتبر المقابلة الشخصية أهم الأدوات فى طريقة دراسة الحالة، ولكن البيانات التى يتم الحصول عليها فى المقابلة، لا بد من التحقق منها بمقارنتها بالوثائق المكتوبة كلما كان ذلك ممكناً..... هذا فضلاً عن أن المذكرات التى يتم عملها خلال المقابلات الشخصية، يجب أن تكون كاملة ودقيقة.... ومن المفضل تدوينها أثناء المقابلة ذاتها.

وفى تحليلنا للدليل المجمع، فإن القائم بالدراسة يبحث عادة عن أسباب هذه الحالة أو الوضع الجارى Current condition or status للشخص الذى يقوم بدراسته.

وتختلف دراسة الحالة عن المسح فى أن دراسة الحالة تتطلب الفحص التفصيلى لعدد قليل وممثل من الحالات. أى أن دراسة الحالة لا تتطلب ـ كما هو الحال فى المسح ـ تجميع البيانات الكمية من عدد كبير من المستجيبين... ويجب أن يحاول الباحث بمنهج دراسة تاريخ الحالة، الاحتفاظ بموضوعيته والامتناع عن إصدار أحكام قيمية على الحالات التى يدرسها.... ذلك لأن هدف الباحث يجب أن يتركز فى تعلم الحقائق عن طريق تشخيصها...

ولكن منهج دراسة الحالة يعانى من عدة عيوب... وأول هذه العيوب هو صعوبة اختيار حالات الدراسة التى ينبغى أن تكون حالات مثالية... حتى تنسحب نتائج الدراسة على المجتمع كله... وتصلح بعد ذلك هذه الطريقة للتعميم.. وهناك عيب آخر هو الميل القوى من جانب الباحث لأن يكون ذاتياً موضوعياً... ويذهب البعض إلى أن هذا العيب لا مفر منه فى هذا النوع من الدراسة....

ومع ذلك فإن دراسة الحالة خصوصاً عند استخدامها مع طريقة المسح الكمى يمكن أن تلفت انتباهنا إلى معلومات لا نستطيع الحصول عليها بنجاح بأى طريق آخر.... وبالتالى فإن هذه الطريقة يمكن أن نجد لها التبرير العلمى فى استخدامها....